

البلاغة العربية بين العلم والذوق

دكتور

حفزي حافظ اشتية

أستاذ مشارك - قسم اللغة العربية

كلية السلط للعلوم الإنسانية

جامعة البلقاء التطبيقية

* أجري هذا البحث بدعم من جامعة البلقاء التطبيقية خلال إجازة التفرغ العلمي الممنوحة

للباحث: حفزي حافظ اشتية

الملخص

- لاحظت الدراسة اتفاق البلاغيين على أهمية البلاغة، وخطورة أهدافها المتعلقة بتعليل الإعجاز القرآني، أو الحكم على النتاج الأدبي .
- ولاحظت اختلاف مناهجهم البلاغية بين تحكيم للذوق أو العلم . وقد طغى المنهج العلمي على التأليف البلاغي بعد مفتاح السكاكي، وتلخيص القزويني، واستمر الأمر حتى المناهج التعليمية المعاصرة المدرسية منها والجامعية .
- تبين أن الاعتماد على الذوق وحده في الأحكام البلاغية لا يكفي، كما أن الاستكانة إلى المنهج العلمي أيضا لا تساعد كثيرا في تحقيق أهداف البلاغة، وحسم قضاياها، والإجابة عن أسئلتها . ولا بد من الموازنة الواعية بين المنهجين كما فعل الجرجاني .
- اعتماد المنهج العلمي في المناهج التعليمية المعاصرة يزيد نفور الطلاب منها، ويقلل من فوائدها، ويصعب تحقيق أهدافها . ولا بد من تخفيف وطأة هذا المنهج، وإعادة الاعتبار للذوق .

استطلاع

يحاول هذا البحث الإجابة عن سؤال رئيس تتضوي تحته مجموعة من الأسئلة الفرعية، تجليه، وتيسر سبل الإجابة عنه.

والسؤال الرئيس هو: علام اعتمد علماء البلاغة في الحكم على بلاغة الكلام؟ على الذوق؟ أم على العلم؟ أم عليهما معا؟

وتحت طي هذا السؤال تنبجس أسئلة جزئية تتضام إجاباتها لتيسير الوصول إلى الإجابة المنشودة من السؤال الرئيس المقصود .

وهذه الأسئلة تتعلق بتعريف العلماء للبلاغة، وتحديدهم وظائفها، ومناهجهم المتبعة في بحث موضوعاتها، ومدى الانسجام بين أقوالهم النظرية التي يشرعونها في خطط كتبهم، وبين تطبيقاتهم الفعلية، ومستوى دقة أحكامهم، وتطابق آرائهم، وهل آلت البلاغة، آخر أمرها، إلى مستقر تجلت فيه آلاتها، وتوحدت أحكامها، ونهضت بمهمات ووظائفها في الحكم السليم النافذ على بلاغة الكلام، والأخذ بيد أبناء العربية نحو تذوق هذا الكلام البليغ، والافتناع به، والنسج على منواله ؟

نظرت الدراسة في مجموعة من المؤلفات البلاغية القديمة، تمثل مناهج التأليف البلاغي منذ بواكير فجرها إلى مرحلة تلخيص القزويني، وشروحه المتعاقبة، والتقطت الإشارات ذات العلاقة حيث كانت .

ونظرت في المؤلفات البلاغية الحديثة التي تنتقد البلاغة، أو تدافع عنها، أو تلك التي تدعو إلى تجديدها وتيسيرها، وكان في كثير منها إلماعات متناثرة إلى قضية هذه الدراسة، لكنها لم تتناولها على نحو مستقل جامع .

كما نظرت في بعض المؤلفات البلاغية التعليمية، المدرسية والجامعية، لا سيما في الأردن، وأطلت على شبيهاها في بعض الدول العربية الأخرى من خلال أفكار انتشرت في بعض مؤلفات أبنائها .

واتكأت على خبرة تدريسية خاصة، امتدت عدة عقود، وشملت معظم المراحل الدراسية المدرسية والجامعية، لعلها كانت كافية للحكم على سوية هذه المناهج المعتمدة، ومدى استساغة الطلاب لها، وإقبالهم عليها، وإفادتهم منها .

ومسألة الدراسة، كما ظهر، ممتدة زمانا ومكانا . وحتى تستوي على جادة، ولا تنزلق إلى البنيات، تم اللجوء إلى التتبع التاريخي للمؤلفات البلاغية الهامة، وملاحظة مناهج مؤلفيها من حيث تحديد البلاغة، وبيان وظيفتها، والاحتكام إلى الذوق، أو العلم، أو إليهما معا، في إصدار أحكامها، ومقاربة أقوالهم النظرية بتطبيقاتهم في مؤلفاتهم .

ثم تكون وقفة فيها مراجعة ومحاكمة، لاستبانة مواطن الخلل والصواب، والإشارة إلى المنهج البلاغي الذي سيطر بأخرة، وساد، ومعاينة مدى جدواه في النهوض بوظيفة البلاغة، والوفاء بأغراضها التي وضعت لها أول أمرها .

وسوف يكون المبتدى بنبذة تاريخية موجزة تطوف ببعض الأحكام البلاغية الفطيرة الأولى قبل مرحلة التأليف البلاغي التخصصي. أما المنتهى فسيكون بخاتمة تجمل نتائج هذه الدراسة، وتضع توصياتها .

كلام بليغ، وأحكام بلاغية قبل نشوء علم البلاغة

نطق العرب على سجيّتهم، وهدتهم نحائزهم الطبيعية بالفطرة إلى إنتاج الكلام البليغ، وأمدتهم بالقدرة على ميز الكلام الجيد من غيره، ووهبت نوابغهم ملكة النقد مع طول ممارسة وخبرة، فنبغت فئة من النقاد تحكم، فيكون لحكمها القبول والنفاد. والأمثلة على ذلك كثيرة، نجتزئ منها ما يدل عليها^(١):

امتلك النابغة، مثلاً، سلطة نقدية، فأصدر أحكاماً قطعية استخذى أمامها فحول الشعراء . وقصته مع حسان بن ثابت تدور قروناً طويلة في كتب النقد والبلاغة. افتخر حسان بقومه قائلًا :

لنا الجفّاتُ العُرّ يلمعن بالضحي وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فأثنى عليه النابغة، لكنه انتقده بأنه قلل جفان قومه، وسيوفهم .

ومع العصر الإسلامي تتأثر الأحكام النقدية بتعاليم الدين، فيجعل سيدنا عمر بن الخطاب زهير بن أبي سلمى شاعر الشعراء؛ لأنه لا يعاظم، ولا يتتبع حوشي الكلام، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه .

وتحفظ لنا كتب الأدب نظرات نقدية لبعض خلفاء بني أمية، وبني العباس يواجهون فيها الشعراء، ويطلقون الأحكام استحساناً أو استهجاناً .

(١) ينظر في ذلك : الخطابي، حمد بن محمد (٣٨٨هـ)، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٢٨، ص٥٨، والعسكري، الحسن بن عبد الله (٣٩٥هـ)، الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨١، ص١٠١، و الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (٤٧١هـ)، الرسالة الشافية في الإعجاز، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص١٢٩ .

وتظهر حركة نقدية كبرى تقوم على الاختيار القائم، غالباً، على التفضيل الصامت كالمفضليات والأصمعيات، ثم تتجلى بتسكين الشعراء في طبقات ابن سلام الجمحي.

وبموازاة ذلك كانت الكتب اللغوية والتفسيرية الأولى تحتضن أفكاراً بلاغية بدائية تصف، أو تفسر، أو تعلق جمال عبارة، أو مصدر استحسان. نجد ذلك، مثلاً، في كتاب سيبويه، وفي معاني القرآن للفراء^(١).

وتطل البلاغة برأسها تلبية لحاجة قرآنية في مجاز القرآن لأبي عبيدة، ثم تجد لها مهاداً وطياً في البيان والتبيين للجاحظ، إذ جعله وعاء واعياً لبدور علم البلاغة: تعريفاتها، وآلاتها، ونوابغها. وحشد فيه طائفة عظيمة من الأقوال البليغة، والأحكام التي تلقي حجارة الأساس للبناء البلاغي النقدي.

إن نظرة عامة عجلت في منثور الأحكام النقدية البلاغية حتى هذه المرحلة تدل على أنها، في مجملها، أحكام ذوقية انطباعية تأثرية، لا ترقى إلى مستوى الأفكار العلمية التي تسند الحكم بمعايير واضحة الدلالة، يحتكم إليها الفرقاء فيعودون متفقين مجتمعين. على أنها ما كانت تخلو أحياناً من تعليقات تضع اللبنة الأولى للمنهج العلمي النقدي البلاغي؛ فالنابغة يغمز حسان لاستخدامه جموع قلة في موقف ممتلئ بالفخر، وسيدنا عمر يغلب الجانب الأخلاقي في شعر زهير، وعبد الملك بن مروان يلمس تقاصر مدح ابن الرقيات له بتاجه المتألق فوق جبينه، عن مدحه لمصعب بن الزبير بألق الضياء الرباني..... إلخ.

(١) ينظر في أثر النحاة واللغويين في البحث البلاغي معظم صفحات كتاب عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، (د.ت).

رسائل بلاغية في الإعجاز القرآني

كانت قضية الإعجاز القرآني أهم دافع لبزوغ فجر التأليف البلاغي، فقد باغت أسلوب القرآن الكريم العرب رغم فصاحتهم، وبهتوا أمام التحدي المعلن بأن يأتوا بمثل القرآن، أو عشر سور منه بل سورة واحدة . وكان إقرارهم بالعجز حيال ذلك حكما نقديا مدويا. وفروا من المواجهة لائذين بأعذار كاذبة ردها الذين غامروا بالاستماع إلى القرآن، فصرعتهم بلاغته وعادوا مقشعري الجلود قد تسربلوا بروح الهزيمة الساحقة . وعندما وصف بعضهم أثر ما سمعه، كان الوصف على هيئة أحكام نقدية عامة لا تغني في ميزان العلم كثيراً، كقول الوليد بن عقبة : " والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمعرق، وأن أعلاه لمثمر، وما يقول هذا بشر "(1).

ولمثل هذا، جاءت التأليف البلاغية الأولى محاولة اكتشاف أسرار الإعجاز القرآني، وبقي القرآن الكريم: إعجازه، وتفسيره، وبلاغته المثور الأكبر للبحث البلاغي.

وقد تعددت آراء علماء البلاغة بشأن الإعجاز القرآني، واختلفوا : بعضهم يرى أن سبب الإعجاز لا يعود إلى نص القرآن نفسه، بل إلى صرف الله الناس عن محاكاته، وبعضهم يرفض ذلك قطعياً، ويرى الإعجاز في القرآن ذاته، وبعضهم يرى للإعجاز وجوها عديدة منها الصرفة، ومنها البلاغة أيضا .

وبها بدأ الرماني (٣٨٦هـ) رسالته^(٢)، فجعل البلاغة ثلاث طبقات أعلاها هو المعجز، وهو بلاغة القرآن . ووضع تعريفا موجزا للبلاغة فهي عنده: إيصال المعنى

(١) الرماني، علي بن عيسى(٣٨٦هـ)، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص٢٨ . وينظر المزيد ص٦٠، والجرجاني، الرسالة الشافية، ص١٢٣ .

(٢) الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص٧٥ .

إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ وقد خصها دون وجوه الإعجاز الأخرى بمعظم صفحات الرسالة. وجعلها في عشرة أقسام يعرض كل قسم منها، فيعرفه ويمثل له من القرآن الكريم غالباً^(١).

وهو في كل ذلك قلما يعلل جمال العنصر البلاغي، أو يبين سبب اختيار هذا المثال وذلك دون غيرهما. وكان همه الأكبر إثبات تفوق بلاغة القرآن على غيرها من البلاغات. فهو، مثلاً، يقارن بين قوله تعالى: " يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ " النساء/١٤٢، وقول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا^(٢)

فيرى أن بيت عمرو حسنٌ في البلاغة، لكنه دون بلاغة القرآن؛ لأنه لا يؤذن بالعدل كما أدنت الآية القرآنية .

وهذا الحكم، كما نرى، حكم قيمي، وليس حكماً فنياً. وقريب من هذا مقارنته^(٣) بين قوله تعالى: " **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** " البقرة/١٧٩، وقول العرب: القتل أنفى للقتل، وهو هنا كذلك، منحاز إلى القرآن يرى بلاغته أعلى البلاغات، وبيانه أحسن البيان، لكن الأسباب التي تسوغ مثل هذه الأحكام عزيزة المنال .

وبعد أن يستعرض الخطابي (٣٨٨هـ) أوجه الإعجاز القرآني غير البلاغية، يواجه الإعجاز البلاغي، فيصف حال من يدرك بذوقه إعجاز القرآن دون أن يكون قادراً على تعليل ذلك، فيقول^(٤): (وزعم آخرون أن إعجازه من جهة البلاغة، وهم

(١) المصدر نفسه، ٧٦-١١٣ .

(٢) نفسه، ص ٩٩ .

(٣) نفسه، ص ٧٧ .

(٤) الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص ٢٤ .

الأكثر من علماء أهل النظر. وفي كيفيتها يعرض لهم الإشكال، ويصعب عليهم منه الانفصال. ووجدت عامة أهل هذه المقالة قد جروا في تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد، وضرب من غلبة الظن دون التحقيق له، وإحاطة العلم به، لذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن، الفاتحة في وصفها سائر البلاغات، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة، قالوا: إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضربا من المعرفة لا يمكن تحديده).

ويضيف^(١): (قالوا : وقد توجد لبعض الكلام عذوية في السمع، وهشاشة في النفس حتى لا توجد مثلها لغيره منه، والكلامان معا فصيحان، ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علة) .

إنه الذوق إذن، تستطيع النفس شيئا دون أن تجد لذلك تفسيراً مقنعاً متفقاً عليه. وهنا تبدو مقارنة حقيقية عبقرية مبكرة تصف قصور الركون إلى الذوق الصرف وحسب، إذ يقول:

(قلت: وهذا لا يقنع في مثل هذه العلم، ولا يشفي من داء الجهل به، وإنما هو إشكال أحيل به على إبهام)^(٢).

وبعد أن يذكر أمر أبيات أنجد بها جرير ذا الرمة، فضمنها إحدى قصائده، استلها الفرزدق حين سمع القصيدة قائلاً لذي الرمة: مضيها أشد لحيين منك. يعلق الخطابي على استدراك الفرزدق الفطري، وميزه الأبيات المنحولة، لبرها ما جاورها، فبين أن مثل هذا الأمر (لا بد له من سبب، بوجوده يجب له هذا الحكم، وبحصوله

(١) المكان نفسه .

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٤، ٢٥ .

يستحق هذا الوصف.... والعلّة فيه أن أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في نسب التّبيان متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية^(١).
ثم جعل البلاغة طبقات كما فعل الرماني، والقرآن أعلاها . وعلل بلاغته بحس ألفاظه ونظمه ومعانيه، فقد (صار معجزا لأنه جاء بأفصح ألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني)^(٢) .

مرحلة الكتب البلاغية المتخصصة

البيديع : (ابن المعتز ٢٩٥هـ)

استمر الشعر شغل العرب الشاغل، فبرزت منذ القرن الثاني الهجري قضية نقدية بلاغية تتمثل في الصراع بين القديم والحديث، أججها طغيان البيديع في شعر بشار بن برد، ومسلم بن الوليد، وأبي نواس، وغيرهم من الشعراء المحدثين في حينه، فكان أول مؤلف بلاغي موقوفا لهذه القضية، إنه كتاب البيديع لعبدالله بن المعتز .
كتاب ذو منهج علمي تعليمي تطبيقي محدد الغرض منذ الكلمة الأولى: (قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن، واللغة، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلام الصحابة، والأعراب، وغيرهم، وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون " البيديع " ليعلم أن بشار ومسلما وأبا نواس، ومن تقلبهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكنه كثير في أشعارهم، فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم، فأعرب عنه ودل عليه)^(٣) .

(١) نفسه، ص ٢٦ .

(٢) نفسه، ص ٢٧ .

(٣) ابن المعتز، عبدالله بن المعتز (٢٩٦هـ)، البيديع، اعتنى بنشره أغناطيوس كراتشكوفسكي، دار الحكمة، دمشق، (د.ت)، ص ١، وانظر ص ٣ .

ورسم خطته في مقدمة كتابه، وشرع أبوابه، ومضى في سبيله وفيها لمنهجه يعرض المصطلح البلاغي، ويردّفه بأمثلة تطبيقية دالة مختارة بعناية، فتآخى بين دفتيه وضح العلم، ورهف الذوق.

لكن الكتاب لم يحسم الصراع بين القديم والحديث، ولم يجب عن السؤال الأكبر: هل نقبل هذا الحديث، ونقر له بالفضل، وننصفه بالحكم له إن تفوق على القديم؟ وما معيار الحكم في هذه الحال؟

نحن ندرك صعوبة مهمة ابن المعتز، فهو يتناول قضية أهمت الناس، ويرود دروبا بكرا، فيلتقط الإشارات القديمة على وجود البديع، ويجري المقاربات مع المستحدث، ويستحضر أو يبتدع المصطلحات، ويجعل وكده إثبات قديم البديع .

لكن السؤال هو : كيف نحكم على هذا البديع القديم ؟ أو المستحدث بالجودة أو الرداءة ؟ وما معيارنا في وصف بلاغته، أو عدم بلاغته ؟

ثمة إشارة في مقدمة الكتاب أشبه بقبح زناد تفيد بأن وجود البديع في الشعر حميد، على ألا يستكثر منه. يقول :

(ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شغف به حتى غلب عليه، وتفرع فيه، وأكثر منه، فأحسن في بعض ذلك، وأساء في بعض، وتلك عقبي الإفراط، وثمره الإسراف)^(١).

فالمشكلة إذن في الإساءة، ولو حافظ أبو تمام على مستوى الإحسان مع الاستكثار لكان ذلك منه زيادة في الإجادة .

(١) المصدر نفسه، ص ١.

ويلفت نظرنا أننا لا نكاد نجد لابن المعتز موقفا نقديا مستجيذا أو مستقبحا في الأمثلة التي يختارها، وإنما الأمر حشد أمثلة تثبت قدم البديع. لكنه لا يطلعنا على معيار اختياره هذا المثال دون غيره .

بل لا نكاد نظفر بما يفصح عن موقفه إيجابا أو سلبا من العناصر البلاغية التي يعرضها، إلا ما ندر، كإعابته بعض مواضع الاستعارات، وتعليقه: (وهذا وأمثاله من الاستعارة مما عيب من الشعر والكلام، وإنما نخبر بالقليل ليعرف فيتنجب)^(١).

وعن المذهب الكلامي يستبرئ من تسميته، وينسبه إلى الجاحظ، ويقول: (وهذا باب ما أعلم أنني وجدت في القرآن منه شيئا، وهو ينسب إلى التكلف تعالى الله عن ذلك علو كبيرا)^(٢).

ويبدو تواضعه وخلقه العلمي بعد أن استوفى العناصر البلاغية الخمسة الأساسية من عناصر البديع، ثم أراد أن يعقبها بعناصر أخرى سماها محاسن الكلام، فقال: (من أحب أن يقتدي بنا، ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة، فليعمل، ومن أضاف من هذه المحاسن، أو غيرها شيئا إلى البديع، ولم يأت غير رأينا فله اختياره)^(٣).

نقد الشعر: (قدامة بن جعفر ٣٣٧هـ)

كأن قدامة أراد أن يحسم الأمر في شأن الشعر، فيجعل لنقده علما حازما، وقانونا حاكما، فهو يتجاوز علوم الشعر المتعلقة بالنحو والغريب والعروض، ويوجه همه نحو علم جيد الشعر وورديته.

(١) نفسه، ص ٢٣ .

(٢) نفسه، ص ٥٣ .

(٣) نفسه، ص ٥٨ .

ويرى الناس قد قصرُوا في وضع كتاب خاص به، وذلك جعلهم (يخبطون في ذلك منذ تفقهوا في العلم، فقليلًا ما يصيبون)^(١).

ومنذ الكلمة الأولى في الفصل الأول، يبدو قدامة متحزماً بمنهج علمي شديد الصرامة، إذ يضع عنواناً هو: "حد الشعر"، ويقول^(٢): (إن أول ما يحتاج إليه في العبارة عن هذا الفن : معرفة حد الشعر الحائز* له عما ليس بشعر، وليس يوجد في العبارة عن ذلك أبلغ ولا أوجز، مع تمام الدلالة، من أن يقال: إنه قول موزون مقفى يدل على معنى).

ولا يكتفي بهذا التعريف البليغ الوجيز الدال كما قال، بل يمضي إلى شرح كل مفردة فيه على نحو يشي أننا أمام منهج علمي منطقي صارم صادم .

ويجعل الشعر صناعة يرسم لها سبل الإجادة، ومهاوي الرداءة، وينحاز إلى الشكلية فلا يجعل للأحكام القيمية والأخلاقية وزناً في الحكم على الشعر . ويشرع في تناول جزئيات الشعر النقدية جزئية جزئية، يجعلها على هيئة نعوت، يعرض الواحد منها، ويعقبه بالأمثلة التوضيحية .

ولعل مثل هذه هو الذي ثور قضية أصل البلاغة العربية، وتأثرها بالثقافة اليونانية، تلك القضية التي ما زالت محل أخذ وردّ إلى يوم الناس هذا . ولعل هذا أيضاً أحد أهم أسباب تشييق المنهج البلاغي العربي إلى عربي وعجمي، أو ما يماثلهما من مصطلحات دالة على منهج ذوقي طبعي، وآخر علمي منطقي. وسيكون لذلك بعض الإشارات في ثنايا هذه الدراسة.

(١) قدامة بن جعفر (٣٣٧هـ)، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٣٨، ص ١٦ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧ .

* هكذا وردت . ولعل الصواب : المائز .

والمتروي المنصف لا يرى سببا وجيها للثورة العارمة التي شنت على منهج قدامة، فوصف بالغلو في المنطق؛ فلا يرى أنه يختلف عن منهج ابن المعتز في عرض العنصر البلاغي أو النقدي مثلوا بأمثلة دالة . ولعل الذي استعدى النقاد على قدامة تلك المقدمة الصارمة في حد الشعر، فأغرتهم بالهجوم عليه، ووصمه بتغليب المنطق. ولعله قد دلهم على نفسه ببعض إشارات وردت في كتابه عن الفلسفة اليونانية، كقوله: (وكذلك يرى فلاسفة اليونانيين في الشعر على مذهب لغتهم).

أما إن كان المنطق المقصود هو هذه الخطة المحكمة الملزمة، وتلك الحدود، فلعل من ينتقد قدامة يجد له بعض عذر في أنه يتصدى لإرساء أساس مكين لعلم يشغل الناس، وتكثر فيه اختلافاتهم، وتتناقض أحكامهم أحيانا في الموضوع الواحد، بل الشاهد الواحد، فأراد أن يرسم الطريق الجدد الذي لا يضل فيه أحد .

ومع ذلك، فليس هذا موضع خلافنا، بل هو في كونه نثر مزايا الشعر الجيد، وعيوب الشعر الرديء، ومثل لكل، فعلام اعتمد في هذا المسلك العلمي العملي ؟ على ذوقه الخاص ؟ فهلا أطلعنا على مقومات ذلك ! إنه لم يشر إلى الذوق إلا مرة واحدة في مقدمة الكتاب، أشار فيها إلى أن الشاعر يعتمد على ذوقه حين يقول الشعر، لا على علمه بالعروض والقوافي .

كتاب الصناعتين : (العسكري ٣٩٥ هـ)

يعلن العسكري، مبكرا، وظيفة البلاغة، وأهميتها، فينص على (أن أحق العلوم بالتعلم، وأولها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه علم البلاغة ومعرفة الفصاحة، الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى..... وقد علمنا أن الإنسان إذا ما علم

البلاغة، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله من حسن تأليف^(١) .

وهو بذلك على نهج سابقه مثل الرماني والخطابي، لكنه يجلي دور البلاغة، ويعلي شأنها، فهي ضرورة للفقير والقارئ والمتكلم، وسلاح العربي الصليب والقرشي الصريح في التفرد. ويحدد لها وظائفها العملية بوضوح في حسن الاختيار، والإنتاج الأدبي، فالمشتغل بالأدب (إذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر رديء، ولفظ حسن وآخر قبيح، وشعر نادر وآخر بارد، بان جهله وظهر نقصه . وهو أيضا إذا أراد أن يصنع قصيدة، أو ينشئ رسالة، وقد فاتته هذا العلم مزج الصفو بالكدر.....فجعل نفسه مهزأة للجاهل، وعبرة للعاقل)^(٢).

إنه ينطلق عن بصيرة من أمره، يعرف جيدا أهمية البلاغة، ويرسم لها دورها، ويستفيد من جهود سابقه، فبدلا من تفريق الشعر عن النثر كما فعل قدامة بن جعفر والحسن بن وهب، ها هو يجمع الصناعتين معا في كتاب واحد .

ويقيم حركة التأليف البلاغي قبله، ويحدد موضع قدمه : (لما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام، ووقفت على موضع هذا العلم من الفضل.....وجدت الحاجة إليه ماسة، والكتب المصنفة فيه قليلة، وكان أكبرها وأشهرها كتاب البيان والتبيين.....وهو لعمرى كثير الفوائد جم* المنافع.....إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة، مبنوثة في تضاعيفه.....فهي ضالة بين الأمثلة)^(٣) .

(١) العسكري، الصناعتين، ص ٩ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠ .

* هكذا وردت . ولعل الصواب جم* المنافع .

(٣) نفسه، ص ١٣ .

ولعله كان قد استشعر التأثير الكلامي المنطقي في بعض المنهج البلاغي، فأشهر موقفه وحدد اختياره: (وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين، وإنما قصدت فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب)^(١).

نظرياً: اتضح المنهج، وتحددت المهمة. بقي أن نجني الفائدة المرجوة. لكن، لا يطول بنا الانتظار بحثاً عن الجدة في مضمون كتاب العسكري ومنهجه، فما عابه على الجاحظ من انتشار الأفكار، يواجهنا في فجر كتابه عند تعريف البلاغة، فنجد عشرات الصفحات قد حوت مئات التعريفات والملاحظات بشأن البلاغة، يختمها بقوله: (إنه لم يُسبق إلى مثل هذا)^(٢)، رغم أن معظمها منقول عن الجاحظ، نضل في ثناياها، ونحن نبحث عن تعريف محدد للبلاغة، وهيكل موحد يضم عناصرها، فلا نكاد نجد.

فكيف السبيل إذن إلى اعتماد أسس سليمة للحكم على الكلام إن كانت البلاغة نفسها غير محددة المعالم؟

ونمضي في الكتاب نطالع افتراعه عشرات العناصر البلاغية يضيفها إلى صنيع من سبقه، ويسير على نهجهم في التمثيل لكل عنصر، لكنه يستكثر. ولعل ذلك جعل بعض المحدثين يتناسى غلواءه في تفریع العناصر، فيميل إلى الافتتاح بثباته على وعده الذي قطعه على نفسه بالنأي عن سلوك مذهب المتكلمين، لكننا نظل على خواتيم كتابه ونحن نبحث عن منهج علمي أو ذوقي واضح غير خلافي، فيطالعنا قوله: (على أن هذا الكتاب قد جمع من فنون ما تحتاج إليه من صناعة الكلام ما لم يجمعه كتاب أعلمه)^(٣). فهل كان في كتابه الكفاية والنهاية؟

(١) نفسه، ص ١٨ .

(٢) نفسه، ص ٦٥ .

(٣) العسكري، الصناعتين، ص ٥٢٥ .

إعجاز القرآن : (الباقلاني ٤٠٣ هـ)

لتنصدر قضية الإعجاز البحث البلاغي من جديد على يدي الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن، الذي يؤكد محققه أنه (أعظم كتاب ألف في الإعجاز إلى اليوم)^(١).

والباقلاني يحدد في مقدمته أن البحث في الإعجاز أهم من كل علم آخر صنف في القرآن^(٢). وينبه على أن جهده في كتابه لن يكون مفيدا إلا إذا كان المتلقي ذا حظ في اللغة والأدب وفنون القول وبعض طرق المتكلمين، وشيء من أصول الدين. ويعلن بداية أن إعجاز القرآن في نظمه^(٣)، وليس بالصرفة^(٤). ويستعرض أوجه الإعجاز الأخرى^(٥)، ويقف على غرضه الأساسي وهو أن القرآن معجز لأنه (بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة). ويشرع بالتفصيل، فيستعرض العناصر البلاغية التي يسميها البديع كما فعل ابن المعتز، ويمثل لها ويطلب، إلى أن يعلن على نحو مفاجئ أنه (لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادعوه في الشعر ووصفوه فيه)^(٦)، ذلك أن الإعجاز خارق للعادة، وليس في البديع ما يخرق العادة، فهو مما يمكن تعلمه، والتدرب عليه، والنبوغ فيه .

(١) الباقلاني، محمد بن الطيب(٤٠٣هـ)، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط٣، (د.ت)، مقدمة المحقق، ص٦٧ .

(٢) المصدر نفسه، ص٥ .

(٣) نفسه، ص١٥ .

(٤) نفسه، ص٢٩ .

(٥) نفسه، ص٤٨ .

(٦) نفسه، ص١١١ .

ثم يبين أن الأعجمي لا يعرف إعجاز القرآن إلا بعلمه أن فصحاء العرب عجزوا عنه، وكذلك حال العربي غير البليغ، أما العربي البليغ فيعرف الإعجاز من علمه أنه عاجز عن الإتيان بمثله.

وبهذا الختام، نخرج ونحن لا نملك قواعد علمية متفقا عليها للحكم على بلاغة الكلام، ومعرفة إعجاز القرآن وإنما مرد الأمر إلى شعور داخلي لدى البليغ بأن بلاغة القرآن لا قبل له بمثلها لأنها خارج وسعه.

ويزيد الأمر صعوبة ما تنبه له الباقلائي، ونبه عليه، وذلك ملمح منه لطيف، يتعلق باختلاف الأذواق، فكل يختار من الكلام، ويستعذب ما يروق له ويوافق هواه^(١).

ثم يصل بنا أخيرا إلا أن أهل الصنعة هم الأقدر على التفريق بين مستوى كلام الربوبية وكلام الناس، (فلكل عمل رجال، ولكل صنعة ناس)^(٢). ويصرح بوضوح أنه (قد قل من يميز في هذا الفن خاصة، وذهب من يحصل في هذا الشأن إلا قليلا)^(٣). ولذلك ينصح بكثرة التدريب، ومقاربة القرآن بغيره، ليعلم قدره، وتقاصر غيره عنه^(٤). ويبدأ باستعراض خطب للرسول، وللصحابة، وغيرهم، ليعلم (أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين)^(٥). ويستمر على مثل هذه المقاربات معظم ما تبقى من كتابه.

(١) نفسه، ص ١١٣.

(٢) نفسه، ص ١٢٥.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٢٦.

(٥) نفسه، ص ١٥٤.

على أن ما يستوقفنا حقا، هو تخصيصه فصلا في وصف وجوه البلاغة^(١)، نقل فيه عن الرماني دون أن يسميه أوجه البلاغة العشرة، نقلا يكاد يكون حرفيا. وجعل ذلك رديفا لعناصر البديع التي كان قد ذكرها سابقا، ثم أجمل الحكم فيها جميعا، بأن (منها ما يمكن الوقوع عليه، والتعمل له، ويدرك بلا تعلم، فما كان كذلك فلا سبيل إلا معرفة أعجاز القرآن به، وأما ما لا سبيل إليه بالتعلم والتعمل من البلاغات، فذلك هو الذي يدل على إعجازه)^(٢).

وبذلك، يتسامى القرآن عن أن يدرك إعجازه بمعرفة البلاغة، فبلاغته لا تطال، ولا تدرك، ولا تتعلم بهذه الأوجه. وعليه، فإن (من قدر أن البلاغة في عشرة أوجه من الكلام، لا يعرف من البلاغة إلا القليل، ولا يفطن منها إلا إلى اليسير)^(٣).

وبكلام الباقلاني هذا في خواتيم كتابه، نجد أنفسنا لا نملك من البلاغة إلا القليل، وأن هذا القليل لا يكفي للحكم السديد، فإذا انضاف إلى ذلك تباين الأمزجة، وتعدد الأدواق، عز الوصول إلى سبيل للحكم على مستوى بلاغة الكلام.

سر الفصاحة : (ابن سنان الخفاجي ٤٦٦ هـ)

حتى النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، استمرت أزمة تعريف البلاغة، هكذا يتضح من كلام ابن سنان الخفاجي في مقدمة كتابه: (فإني لما رأيت الناس مختلفين في ماهية الفصاحة وحقيقتها، أودعت كتابي هذا طرفا من شأنها، وجملة من بيانها)^(٤). واستمر كذلك الخلاف بشأن أخطر قضية بلاغية: الإعجاز القرآني،

(١) الباقلاني، إعجاز القرآن، ص ٢٦٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧٥.

(٣) نفسه، ص ٣٠٠.

(٤) ابن سنان الخفاجي، عبدالله بن محمد (٤٦٦ هـ)، سر الفصاحة، تحقيق علي فودة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٤، ص ٣.

كما يصرح ابن سنان : (والخلاف في الظاهر فيما به كان معجزا على قولين أحدهما: أنه خرق العادة بفصاحته..... والقول الثاني أن الإعجاز فيه صرف العرب عن المعارضة مع أن فصاحة القرآن كانت في مقدورهم لولا الصرف)^(١).

وينظر إلى التعريفات البلاغية قبله فيرى أنها (إذا حققت كانت كالرسوم وليست للحدود الصحيحة)^(٢).

بل تزداد صراحته جرأة إذ يعلن أن العارفين بالبلاغة هم قلة في زمانه، بل في زمان من قبله : (وأقول قبل كلامي في الفصاحة وبيانها إنني لم أر أقل من العارفين بهذه الصناعة، والمطبوعين على فهمها ونقدها مع كثرة من يدعي ذلك.... وقد كنت أظن أن هذا شيء مقصور على أزماننا اليوم.....حتى وجدت الداء قد أعيا أبا القاسم الحسن بن بشر الأمدي، وأبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ قبله)^(٣).

وبهذا، فإن جهوداً عظيمة بذلت خلال عدة قرون خلت، لم تتجح في تحديد البلاغة، ورسم منهج لها محدد تعرف به بلاغة الكلام، وتتفق على ضوئه الأحكام .

ولذلك، هو يرى أن كتابه (مفرد في بابيه، غريب في غرضه)^(٤). وقد وضعه ليكون (كافيا في العلم بحقيقة البلاغة والفصاحة)^(٥). وسماه سر الفصاحة: فكان كلامه هذا دعوة سخية لنا كي نبرأ من الداء رآه عضالا. وحدد غرضه بنبرة خطابية حازمة:

(١) المصدر نفسه، ص ٤ .

(٢) نفسه، ص ٥٦ .

(٣) نفسه، ص ٢١٤ .

(٤) نفسه، ص ٥ .

(٥) نفسه، ص ٢٢٢ .

(اعلم أن الغرض بهذا الكتاب معرفة حقيقة الفصاحة، والعلم بسرّها، فمن الواجب أن نبين ثمرة ذلك وفائدته)^(١). ويوضح تأثير الفصاحة في العلوم الأدبية، فهي تقوم على نظم الكلام، ونقده، ومعرفة ما يختار منه، (وكلا الأمرين متعلق بالفصاحة، بل هو مقصور على المعرفة بها)^(٢). والعلم بمعرفة إعجاز القرآن مرهون بمعرفة الفصاحة كذلك^(٣).

وجنح نحو العلم، ودعا الباحثين عن إعجاز القرآن إلى أن يكفوا الأمر لأهله المختصين، وأن يخلصوا السعي في ذلك، وحذر المتهاون، والمتجرئ على القول في الإعجاز دون علم: (وكان ذلك يحتاج إلى صناعة لا يفهمها، وعلوم لا يعرف شيئاً عنها، فلم ير أن يرجع إلى أقوال العلماء بتلك الصناعة، والمهتمين بفهم أسرار تلك العلوم، بل قال بغير حجة، وأفتى من غير معرفة، ورضي أن يغيب عقله ودينه من الموضوع الذي تحرز فيه، وأشفق أن يغيب شيئاً من ماله)^(٤).

إن هذا الذي يشير إليه ابن سنان هو ما نسعى إليه، وهو أن يمدنا العلماء المختصون بالأدوات والآلات التي تكفل الوصول إلى الحق الأبلج في الأحكام البلاغية.

لذلك شرع في الحديث عن الأصوات، والحروف، والكلام، واللغة^(٥)، بأسلوب علمي مجبول بالنحو والمنطق، استعدى عليه من تبعه. ثم أناخ في الكلام عن الفصاحة، وأفرغ جهده في بيان نعوتها، وتحديد معالمها، وتقييد شروطها.

(١) ابن سنان، سر الفصاحة، ص ٣ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٣-٤ .

(٣) نفسه، ص ٤ .

(٤) نفسه، ص ٢١٣-٢١٤ .

(٥) نفسه، ص ٦، ١٥، ٢٤، ٤٣ على التوالي .

ومضى يضع قواعد البنيان المنشود. وحكم ذوقه في الاختيارات فتلاقى العلم الموضوعي بالذوق الشخصي فهل كان في ذلك منجاة؟

إنه وضع نفسه هنالك، إذ اختتم حديثه عن كتابه قائلاً: (قد وفينا بجميع ما شرطناه في أوله، وقد كنا عزمنا على أن نصله بقطعة مختارة من النظم والنثر يتدرب بالوقوف عليها في فهم ما ذكرناه من أحكام البلاغة، وكشفناه من أسرار الفصاحة، لكن فرقنا من الإطالة والتثقل على الناظر فيه بالملل والسامة)^(١).

وهكذا ترك لنا أحكاماً دون تطبيق، فهل ارتضى لاحقوه أحكامه العلمية، واختياراته الذوقية؟ هذا سيعرف لاحقاً عند عرض مواقفهم من بعض تلك الأحكام والاختيارات.

دلائل الإعجاز: (الجرجاني ٤٧١ هـ)

أحس الجرجاني بالأزمة التي استحرت في البلاغة، ومعها النحو، فحمل هم القضية، وانبرى لها معلماً مخلصاً لا يفتر ولا يمل، يحاول وضع منهج لتذوق الكلام البليغ، وتفهم الإعجاز القرآني: هذا المنهج ينهض على العلم الذي يبين العلة المقنعة، ويستند إلى الذوق: ذوق المتكلم، وذوق المتلقي الذي يتشرب مواطن البلاغة، ويتمتع بها.

يقول في بواكير كتابه: (وجملة ما أردت أن أبينه لك أنه لا بد لكل كلام تستحسنه، ولفظ تستجده، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة، وعلّة معقولة،

(١) نفسه، ص ٢٧٥ .

وأن يكون إلى العبارة عن ذلك سبيل، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل^(١). وحتى النظم، الذي يراه سر الإعجاز القرآني، لا بد له من قوانين ورسوم: (اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها)^(٢).

ويستحضر هذا المنهج عند التطبيق، فيعرض أبياتا للبحثري يستحسنها، فيمزج الذوق بالعقل، ويقول: (فإذا رأيتها قد راقتك، وكثرت عندك، ووجدت لها اهتزازا في نفسك، فعد، وانظر السبب، واستقص في النظر، فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أن قدم وأخر، وعرف ونكر، وحذف وأضمر، وأعاد وكرر، وتوخى على الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيه علم النحو، فأصاب في ذلك كله)^(٣). ويضع أدوات النقد والحكم، ويعلل^(٤)، فيبدو كأنه يبرسي علما يتوخى أن تكون أحكامه جامعة، لأن (العلوم التي لها أصول معروفة، وقوانين مضبوطة، قد اشترك الناس في العلم بها، واتفقوا على أن البناء عليها إذا أخطأ فيها المخطئ، ثم أعجب برأيه لم تستطع رده عن هواه، وصرفه عن الرأي الذي رآه إلا بعد الجهد، وإلا بعد أن يكون حصيفا عاقلا ثبنا إذا نبهته انتبه.....)^(٥).

إن الحكم البلاغي ينبغي أن يستند إلى دليل وتعليل، فالآفة (من زعم أنه لا سبيل إلا معرفة العلة في قليل ما تعرف المزية منه، وكثيره)^(٦).

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ودار المدني،

جدة، ط٣، ١٩٩٣، ص ٤١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨١.

(٣) نفسه، ص ٨٥.

(٤) نفسه، ص ٩٢، ١٠٢، ١٣٢.

(٥) نفسه، ص ٥٥٠.

(٦) نفسه، ص ٢٩١-٢٩٢.

ها قد استباننت أهمية العلم، فماذا عن الذوق؟: (واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعا من السامع، ولا يجد لديه قبولا حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة..... ولا تتكلف تعريفه لعلمك أنه قد عدم الأداة التي معها يعرف، والحاسة التي بها يجد، فليكن قدحك في زند وار، والحكُّ في عود أنت تطمع منه في نار)^(١).

إذن، إزاء هذا العلم، لا بد من الذوق، والنفس القابلة، ليتكامل الموردان في المصب الواحد: (لأن المزايا التي تحتاج أن تعلمهم مكانها، وتصور لهم شأنها، أمور خفية، ومعان روحانية، أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها، وتحدث له علما بها حتى يكون مهياً لإدراكها، وتكون فيه طبيعة قابلة لها، ويكون له ذوق وقريحة يجد لهما في نفسه إحساسا بأن من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزية)^(٢).

ها هو الذوق إذن يحضر بقوة ليكون رديفا للعلم في الحكم البلاغي، (والبلاء والداء العياء أن هذا الاحساس قليل في الناس، حتى إنه ليكون أن يقع للرجل الشيء من هذه الفروق والوجوه في شعر يقوله، أو رسالة يكتبها، الموقع الحسن، ثم لا يعلم أنه قد أحسن، فأما الجهل بمكان الإساءة فلا تعدمه)^(٣).

إننا إذن أمام المشكلة وجها لوجه، فإن كان بعض أرباب الأدب والبلاغة عاجزا عن تبيين مواضع إحسانه وإساءته، فكيف السبيل إلى الحكم البلاغي المرضي والمرضي؟

لا بد من توافر الذوق، والطبع، والاستعداد الفطري، وإن انعدم ذلك لم يُجد العلم شيئا (فلست تملك إذا من أمرك شيئا حتى تظفر بمن له طبع إذا قدحته وري، وقلب إذا أريته أرى، فأما وصاحبك من لا يرى ما تريه، ولا يهتد للذي تهديه، فأنت رام في

(١) نفسه، ص ٢٩١ .

(٢) نفسه، ص ٥٤٧ .

(٣) نفسه، ص ٥٤٩ .

غير مرمى معنّ نفسك في غير جدوى . وكما لا تقيم الشعر في نفس من لا ذوق له، كذلك لا تفهم هذا الشأن من لم يؤت البلاغة التي بها يفهم^(١).

وهنا، يشهر الجرجاني الداء الذي ليس له دواء، ويجهر بأس البلاء، وذلك (إذا ظن العادم لها أنه أوتيتها، وأنه ممن يكمل للحكم، ويصح منه القضاء، فجعل يقول القول لو علم غبه لاستحيا منه.....)^(٢).

بالعلم وبالذوق معاً، تجتمع البصيرة والإحساس، فيكون للحكم البلاغي قيمة وأساس، وإلا فإن تلك الأحكام ستتحول إلى كلمات جوفاء لا يعينها القائل، ولا يعيها المتلقي : (فإنك ترى طبقات من الناس يتداولون فيما بينهم ألفاظاً للقدمات، وعبارات، من غير أن يعرفوا لها معنى أصلاً، أو يستطيعوا إن يسألوا عنها أن يذكرها لها تفسيراً يصح)^(٣).

ويرياً بقارئ كتابه أن يكون من هذه الفئة، فيخاطبه أن إياك أن يكون (قصاراك أن تكرر ألفاظاً لا تعرف لشيء منها تفسيراً، وضروب كلام للبلغاء إن سئلت عن أغراضهم فيها لم تستطع لها تبييناً)^(٤).

ولا ينسى أن ينبه على أن مجرد العلم الأصم للعناصر اللغوية والبلاغية لا يكفي لإنتاج كلام بليغ، وإنما ملاك الأمر لحسن التخير، ووضع كل عنصر في موضعه اللائق به، والمقدار المناسب له، وفق ما رمز له العلماء والبلغاء، فلم يفهم قولهم إلا (من هو في مثل حالهم من لطف الطبع، ومن هو مهياً لفهم تلك الإشارات)^(٥).

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٥٤٩. وقارن بالرسالة الشافية، ص ١٥٨ .

(٢) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٥٤٩ .

(٣) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٤٥٦ .

(٤) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٤٧٨ .

(٥) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٢٥٠ .

بهذا الالتئام بين العلم والذوق، يمضي الجرجاني في تبيان سر الإعجاز القرآني، وسحر الأساليب البلاغية وعناصرها، معللاً محلاً قد أخلص لقضيته، وأفرغ لها وقته وجهده وحسه وقدرته الكلامية، وقوة حجاجه، ورهافة ذوقه، ولطيف طبعه، فخاطب قارئه، بثقة، قائلًا : (اعلم أن معك دستوراً لك فيه إذا تأملت غنى عن كل ما سواه.....)^(١).

ترك الجرجاني البلاغة على محجة واضحة، بلاغة لا تحلق إلا بجناحين : علم وذوق. فبماذا خلفه من خلفه؟

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز ، ص ١٤٠ .

المثل السائر: (ابن الأثير ٦٣٧ هـ)

مضى الزمخشري يطبق أحكام الجرجاني في كشافه^(١)، فهو بلاغي دون مؤلف، لكن وفاءه لمذهب الاعتزال أثر في منهجه البلاغي وأحكامه، بينما كان الرازي^(٢) في كتابه نهاية الإيجاز، يلخص كتابي الجرجاني: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، فكان ذلك إيذاناً ببدء اتجاه البلاغة نحو التحديد العلمي الحازم الذي سيتجلى في مفتاح السكاكي.

ولعل ابن الأثير قد استشعر هذا الجموح في المنهج البلاغي نحو التععيد الجارف، فكان كتابه محاولة جادة لرد المنهج إلى صوابه. إنه يعلن عدم رضاه عن مسار التأليف البلاغي، ولم يجد ما ينتفع به إلا موازنة الآمدي، وسر الفصاحة للخفاجي. ويبادر إلى رد الاعتبار للذوق فيجعل له المعيار الأعلى في الشأن البلاغي: (واعلم أيها الناظر في كتابي أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذي هو أنفع من ذوق التعليم)^(٣). ولا ينفك يردد هذا الإشعار حتى نهاية كتابه: الذوق قبل العلم، ولا فائدة لأدوات العلم وآلاته إن غاب الذوق: (وملاك هذا كله الطبع، فإنه إذا لم يكن ثم طبع فإنه لا تغني تلك الآلات شيئاً)^(٤).

هذا الذوق هو المرجع في الحكم، والسند العادل: (فأنصف أيها المتأمل لما

(١) الزمخشري، محمود بن عمر (٥٣٨ هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٧.

(٢) الرازي، محمد بن عمر (٦٠٦ هـ)، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق بكرى شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥.

(٣) ابن الأثير، نصرالله بن محمد (٦٣٧ هـ)، المثل السائر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت، ١٩٩٠، ج ١/٢٥.

(٤) المصدر نفسه، ١/٢٧.

ذكرناه، واعرضه على طبعك السليم حتى تعلم صحته^(١). والذوق هو الهادي، فبين كلام وآخر (فرق يحكم فيه الذوق السليم)^(٢). وسر بلاغة الكلام (لا يخفى على من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام)^(٣). ومعاينة الفصاحة في الكلمات والأساليب مردها إلى الذوق السليم، فهذه (ينبو عنها الذوق السليم)^(٤)، وهذا (ثقل على السمع كربه على الذوق)^(٥)، وتلك (غليظة في السمع كريهة على الذوق)^(٦)، (وهذا كله يرجع إلى حاكم الذوق السليم)^(٧)، (وهذا ينكره من لم يذوق ما ذقته من طعم البلاغة)^(٨).

ويحضر الذوق بقوة في العملية الإبداعية، (ومؤلف الكلام من كاتب وشاعر إذا مرت به ألفاظ عرضها على ذوقه الصحيح)^(٩). وبالذوق يواجه ابن الأثير، بقسوة، الخفاجي الذي كان قد غلب العلم على الذوق في تبين فصاحة المفردات، ووضع قواعد حاول أن يجعلها لامة تميز الفصيح من غير الفصيح، فاعترض ابن الأثير متهما على هذا المنهج العلمي غير العملي: إن سئلت عن فصاحة كلمة هل تقول للسائل: (اصبر إلى أن اعتبر مخارج حروفها، ثم أفتيك بعد ذلك بما فيها من حسن أو قبح)^(١٠).

(١) نفسه، ٥٣/١ .

(٢) نفسه، ١٥٤/١ .

(٣) نفسه، ١٦٢/١ .

(٤) نفسه، ١٥٨/١ .

(٥) نفسه، ١٦٢/١ .

(٦) نفسه، ١٦٨/١ .

(٧) نفسه، ٢٨٠/١ .

(٨) نفسه، ٢٢٣/٢ .

(٩) نفسه، ٢٨٤/١ .

(١٠) نفسه، ١٥٨-١٥٩ .

على أن هذا الذوق المبجل عند ابن الأثير لم يكن في ساح البلاغة وحدها، بل واكبه العلم أيضا، فالرجل قد اطلع جيدا على جهود سابقيه، رغم عدم إشارته الصريحة إلى ذلك، لكن مضمون كتابه يشي بكثير من آرائهم: يوافقها أو يخالفها، والعناصر البلاغية التي يعرضها هي في معظمها نتاج مسار بلاغي علمي تراكمي . وهو لا يسلم الأمر البلاغي إلى الذوق بإطلاق، فذلك قد لا يكون مأمونا دائما: فللبادية ذوق، وللحاضرة ذوق آخر^(١). والفصاحة مقيدة زمانا ومكانا، فاللفظ (يختلف في استعماله بالنسبة إلى الزمن وأهله)^(٢)، لذلك لا بد أن يكون العلم رديفا للذوق، يعلل، ويدلل و(ينبغي ألا تكون الألفاظ نافرة في مواضعها، ثم يكتفى بهذا القول من غير بيان ولا تفصيل)^(٣). وإن كان يعول في موقف على ذوق المتلقي فيقول: (وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملتته)^(٤)، إلا أنه لا يجد مندوحة في موقف آخر من إرساء قاعدة، فيقول: (لنبين لك في ذلك رسما تتبعه)^(٥). ورغم اعتداد ابن الأثير الزائد بنفسه، وأسلوبه الساخر في مخاطبة بعض من خالفهم في آرائهم، إلا أننا نفارق بكتابه عهدا رخيا للبلاغة، سنفتقده كثيرا من بعده.

المفتاح: (السكاكي ٦٢٦ هـ)

يكاد يجمع معظم الباحثين، القدماء منهم أو المحدثين، على أن السكاكي هو الذي قاد زمام البلاغة إلى مناخها الأخير، فغدت علما كالنحو والصرف، عند التحقيق يبدو فيها الكثير من القواعد العلمية، والقليل من النظرات الذوقية التي قد تحضر نظريا، وغالبا ما تغيب عند التطبيق.

(١) نفسه، ١٨٣/١ .

(٢) نفسه، ١٦١/١ .

(٣) ابن الأثير، المثل السائر، ٢٩٦/١ .

(٤) المصدر نفسه، ٩٦/١ .

(٥) نفسه، ١٠٥/١ .

أما غلبة الاتجاه العلمي فأمر لا يحتاج إلى أي عناء في إثباته، فقد أقام السكاكي الهيكل العظمي للبلاغة من ثمانية أبواب رئيسة، ثم كساها علما بالتعريفات المكتفة المختصرة، والتفريعات المتوالدة الكثيرة .

وبدت القاعدة هي محط الفائدة، وكادت تغيب النصوص الحية الوافية، والشواهد الثرة الوافرة، واقتصر الأمر في كثير من الأحيان على تفعيد القاعدة، وتعقيبها ببعض الأمثلة، بل بمثال أو بعض مثال، تكون وظيفته إثبات القاعدة، والتدليل على صحتها، فتراجع النص وهان، واضطرب النسق الطبيعي، فبدا كأن العربية تسير أمام الحصان .

ولعل (أوضح ما يظهر توجه السكاكي نحو الضبط والتقنين، واتخاذ القاعدة معياراً نقدياً، موقفه من المصطلحات البلاغية كالبلاغة والفصاحة، والمعاني والبيان والبديع، حيث أجهد نفسه في تقييدها، وحدّها حدّاً جامعاً مانعاً يميز بعضها عن بعض)^(١).

لكن الإمام السكاكي، وهو قريب العهد زمنًا وتأثراً بسابقه الإمام عبد القاهر الجرجاني، ومعاصر لابن الأثير، لم يتجاوز، أحياناً، الجانب الذوقي، ولم يتجاهل، نظرياً على الأقل، أهميته العظمى في الحكم على بلاغة الكلام:

في مطلع الجزء الثالث من المفتاح، وهو الجزء المخصص للبلاغة، يستعرض فنون الخبر : اعتبارات الإسناد الخبري، والمسند إليه، والمسند، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب، ولعله خشي أن يغرق في هذه التقسيمات العلمية، وينسى أصلاً ينبغي ألا ينسى، أو يغفل التذكير به، فبادر إلى القول: (وقبل أن نمنح هذه الفنون حقها في الذكر، ننبهك على أصل، لتكون على ذكر منه، وهو أن ليس من الواجب في صناعة، وإن كان المرجع في أصولها وتفاريحها إلى مجرد العقل، أن يكون الدخيل فيها كالناشئ عليها في استفادة الذوق منها، فكيف إذا كانت الصناعة مستندة

(١) يوسف رزقة، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد السابع، العدد الأول، يناير، ١٩٩٩، ص ١٧٣.

إلى تحكيمات وضعية، واعتبارات إلفية، فلا على الدخيل في صناعة علم المعاني أن يقلد صاحبها في بعض فتاواه إن فاته الذوق هناك إلا أن يتكامل على مهل موجبات ذلك الذوق . وكان شيخنا الحاتمي... يحيلنا بحسن كثير من مستحسنات الكلام إذا راجعناه فيها على الذوق، ونحو حينئذ ممن نبغ في عدة شعب من علم الأدب، وصبغ بها يده، وعانى فيها وكده وكده . وها هو الإمام عبد القاهر.... في دلائل الإعجاز كم يعيد هذا^(١).

إنها صحة قبل سبات، واستنكار قبل فوات، وإشارة واضحة الدلالة إلى أن العلم، والتمكن منه، والتمرس فيه، كل أولئك لا تكفي لفهم البلاغة، ولا تغني عن استحضار الذوق قبل النطق بالحكم.

وعندما يواجه قضية الإعجاز، يحضر الذوق فهو يستحضر أربعة أوجه للإعجاز، هي: الصرفة، وتباين أسلوبه عن المؤلف، وسلامته من التناقض، والإخبار الصادق عن الغيوب . وينصب إزاءها الذوق المدرب المجرب كأنه يوازئها: (فهذه أقوال أربعة يخمسها ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة، ولا طريق لك إلى هذا الخامس إلا طول خدمة هذين العلمين، بعد فضل إلهي من هبة يهبها بحكمته من يشاء، وهي النفس المستعدة لذلك)^(٢).

ثم بدا كأن أوجه الإعجاز قد توارت، ولم يبق ماثلاً إلا الذوق، فقال: (واعلم أن شأن الإعجاز عجيب، يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحة . ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين)^(٣).

(١) السكاكي، يوسف بن محمد (٦٢٦هـ)، مفتاح العلووم، تحقيق عبد الحميد الهندواي، دار الكتب

العلمية، بيروت، ٢٠٠٠، ص ٢٥٧ .

(٢) السكاكي، المفتاح، ص ٦١٥ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٢٦ .

وفي ثنايا الكتاب، ترد له بعض وقفات، ويردد بعض عبارات تزوع منها أشداء نظرات الجرجاني: يعلق على الخبر الإنكاري في بيت من الشعر كان قد أورده الجرجاني:

جاء شقيقٌ عارضاً رمحه إنَّ بني عمك فيهم رماح

فيوضح أن أسلوب الكناية هذا يستكثر استخدامه أرباب البلاغة، وهو أثير في ميدانها، ولا يتقنه إلا فرسانها، وهو فن (لا تلين عريكته، ولا تنقاد قرونه بمجرد استقصاء صور منه، وتتبع مظان أخوات لها، وإتعب النفس لتكرارها، واستيداع خاطر حفظها وتحصيلها، بل لا بد من ممارسات لها كثيرة، ومراجعات فيها طويلة، مع فضل إلهي من سلامة فطرة، واستقامة طبيعة....)^(١).

ويقف على بعض مواضع الالتفات، وينبه على أنها من الاعتبارات التي تشخص في أعين الفحول البزل عند وزن البلاغة، والمفاضلة بين كلام وآخر، فيقول: (واعلم أن لطائف الاعتبارات المرفوعة لك في هذا الفن من تلك المطامح النازحة من مقامك، لا تثبتها حق إثباتها ما لم تتمر بصيرتك في الاستشراق لما هنالك من إطباء المجهود مستظها في عينك أن تستشعرها بنفسك لك يقظي، وطبع لطيف، مع فهم متسارع، وخاطر معوان، وعقل دارك)^(٢).

إنها أصداء عبارات الجرجاني، وأفياء فكرته في مزج العلم بالذوق، والعقل بالروح .

وفي ما يشبه الطمأنينة التامة إلى أنه قد استوفى مدَّ السبيل الواضحة، يختم حديثه عن القانون الأول "الخبر"، قبل أن يشرع في الحديث عن القانون الثاني

(١) نفسه، ص ٢٦٣ .

(٢) نفسه، ص ٣٠٣-٣٠٤ . وانظر أقولا أخرى من هذا الوادي : ص ٢٦٤، ٣٠٤ .

"الإنشاء"، فيضع خاتمة حاسمة.. (واعلم أنني مهدت لك في هذا العلم قواعد، متى بنيت عليها أعجب كلَّ شاهد بناؤها، واعترف لك بكمال الحدق في صناعة البلاغة أبناؤها... ثم إذا كنت ممن ملك الذوق إلى الطبع، وتصفحت كلام رب العزة، أطلعتك على ما يوردك هناك موارد الهزة... فإن ملاك الامر في علم المعاني هو الذوق السليم، والطبع المستقيم، فمن لم يرزقهما فعليه بعلوم آخر، وإلا لم يحظَ بطائل مما تقدم وما تأخر..

إذا لم تكن للمرء عينٌ صحيحةً فلا غرو أن يرتاب والصبحُ مسفرٌ^(١).

لو كان للذوق هذا الحضور الأثير عند التطبيق، لكانت البلاغة بين يدي السكاكي قد سمت عن جمود الحدود، وتحررت من الرسف في القيود، لكن الواقع كان غير ذلك، فقد سكت بقواعد علمية جف فيها رواؤها، وتوارى الذوق في جنباتها، إذ كان جهده الأعم يقوم على تتبع العناصر البلاغية، يتناولها بالتعريف، ويطيّر لها مثالا أو بعض مثال، وكان همه الأكبر هو حصر العناصر، وإرساء القواعد .

وعلى يديه وقع الفصل بين فروع البلاغة فكانت معاني وبيانا ومحسنات، بعد أن لبثت طويلا قبله جسما واحدا، أرومته واحدة، وفروعه متعددة.

التلخيص والإيضاح : (القزويني ٧٣٩ هـ)

بجهد القزويني في تلخيص المفتاح وإيضاحه، تكون البلاغة قد انزلت إلى مضيقها الأخير الذي استقرت فيه، ولم تجد سبيلا، بعد، للانفكاك منه .

إنه يؤمن بأهمية علم البلاغة، فبه (تعرف دقائق العربية وأسرارها، وتكشف عن وجوه الإعجاز في نظم القرآن أستاذها)^(٢). وهو يتقبل بالرضا التام أن يجعل جهده

(١) نفسه، ص ٤١٣ .

(٢) القزويني، محمد بن عبد الرحمن (٧٣٩ هـ)، التلخيص في علوم البلاغة، شرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت)، ص ٢٢ .

مقصورا على مفتاح السكاكي، فالمفتاح، كما يقول: أعظم ما ألف في البلاغة، (لكونه أحسنها ترتيبا، وأتمها تحريرا، وأكثرها للأصول جمعا)^(١).

ولذلك، فقد جعله همه، وأفرغ فيه جهده، فوضع له (مختصرا يتضمن ما فيه من القواعد)^(٢).

ثم استشعر غموض التلخيص، وقصوره عن أداء غرضه، فوضع له توضيحا، وقال: (هذا كتاب في علم البلاغة وتوابعها ترجمته بالإيضاح، وجعلته على ترتيب مختصري الذي سميته تلخيص المفتاح، وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له، فأوضحت مواضعه المشككة، وفصلت معانيه المجملة)^(٣).

وفي التلخيص والإيضاح، يرتضي المنهج الذي خطه السكاكي للبحث البلاغي، فقد غدا هذا البحث علما مقننا مقيدا له حدوده وقيوده، فللبلاغة ثلاثة علوم تعرض بالترتيب: المعاني، والبيان، والبديع . وللمعاني ثمانية أبواب تتوزع عليها المباحث البلاغية، وللبيان عناصره، وللبديع كذلك .

والبحث يمضي في العلوم الثلاثة على نسق متشابه، يبدأ بتعريف العلم تعريفا مكثفا في بضع كلمات، ثم يتم تناول عناصره واحدا تلو آخر على النهج نفسه أيضا : تعريف المختصر، معقوب بمثال مبتسر، ثم تقريع للأجزاء، وأجزاء الأجزاء، مع ندرية الأمثلة، وتكرارها، واجترارها، وشح التوضيح والتحليل والتعليل. وإن وجد شيء من ذلك، فالغالب أن ينصب على تعليقات منطقية بعيدة تماما عن روح البلاغة، أو خدمة أهدافها.

(١) المكان نفسه .

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٢، ٢٣ .

(٣) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق محمد السعدي ومحمد خفاجي وعبد العزيز شرف، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٩، ص ٧٥ .

فالحذف، مثلاً، الذي كان بين يدي الجرجاني قضية تشع روحاً أدبية حيوية، وتفيض أمثلة يشبعها تحليلاً وتعليلاً، يخاطب العقل والروح، ويستنهض الذوق، هذا الحذف تتأثر الحديث عنه هنا إلى مزق وأشلاء في عدة أبواب من الأبواب الثمانية، وغدا أشبه بإشارات رمزية كزة، وأمثلة ضحلة، بل دون أمثلة أحياناً : فالمسند إليه، مثلاً، يحذف (للاحتراز عن العبث الظاهر، أو تخيل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل واللفظ، كقوله : قال لي كيف أنت قلت عليل)^(١).

ثم يعدد أسباباً أخرى للحذف دون أي تمثيل أو تحليل أو تعليل. وقد تند عنه إشارة طائفة، تحملها عبارة عابرة، توحى بأن للحذف عللاً لا تحدها حدود، ولا تخضعها قيود، فيبين، مثلاً، أن الحذف قد يقع (لاعتبار آخر لا يهدي إلى مثله إلا العقل السليم والطبع المستقيم)^(٢).

والتقديم الذي قدح زناده سيبويه، وربطه بالعناية والاهتمام، وأطال القول في شأنه الجرجاني وابن الأثير والزمخشري، فكانت البلاغة مشاعل المعنى، أصبح هنا حديثاً منطقياً يكاد لا يمت للبلاغة والمعنى بأية صلة:

في موضوع تقديم المسند إليه، يستعرض القزويني بعض آراء عبد القاهر الجرجاني، ويقابلها برأي السكاكي، ويقف عند تقديمه لأنه دال على العموم، نحو : كل إنسان لم يقم، مقابل تأخيره نحو لم يقم كل إنسان، فيعرض الفروق بين التركيبين، فالثاني (يفيد نفي الحكم عن جملة من الأفراد لا عن كل فرد، وذلك لئلا يلزم ترجيح التأكيد على التأسيس، لأن الموجبة المهملة المعدولة المحمول في قوة السالبة الجزئية المستلزمة نفي الحكم عن الجملة دون كل فرد، والسالبة المهملة في قوة السالبة الكلية المقنضية للنفي عن كل فرد لورود موضوعها في سياق النفي)^(٣).

(١) المصدر نفسه، ص ٥٣ .

(٢) القزويني، الإيضاح، ص ١٢٠ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٨٤-٨٥ .

ولا يكتفي القزويني بذلك، بل يستعرض معترضاً أيضاً: (وفيه نظر، لأن النفي عن الجملة في الصورة الأولى، وعن كل فرد في الثانية، إنما أفاده الإسناد إلى ما أضيف إليه " كل "، وقد زال ذلك بالإسناد إليها، فيكون تأسيساً لا تأكيداً، ولأن الثانية إذا أفادت النفي عن كل فرد، فقد أفادت النفي عن الجملة، فإذا أجملت على الثاني لا يكون تأسيساً....)^(١).

ما كان أغنى البلاغة عن كل هذا وأغنانا ! إنها توغل في جمود العلم والمنطق، وتبتعد عن حيوية الذوق .

وفي التفريق بين المجاز والكناية يعرض رأي السكاكي: (وفرق السكاكي وغيره بينهما بوجه آخر أيضاً، وهو أن مبنى الكناية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم، ومبنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم). ويعترض أيضاً: (وفيه نظر، لأن اللازم ما لم يكن ملزوماً يمتنع أن ينتقل منه إلى الملزوم، فيكون الانتقال حينئذٍ من الملزوم إلى اللازم . ولو قيل : للزوم من الطرفين من خواص الكناية دون المجاز، أو شرط لها دونه، اندفع هذا الاعتراض...)^(٢).

وعلى مثل هذا يمضي القزويني في الكثير من المواضع، لا يوجه جهده نحو توضيح الملتبس في كتاب المفتاح، بل يعترض، فيزداد الأمر تعقيداً وغموضاً، وبدلاً من أن نفهم الكتاب الأصلي المشروح، نجد أنفسنا بحاجة ماسة إلى شرح الشرح، وتوضيح الإيضاح .

ويزيد صعوبة الأمر وجود مواضيع ليس لها علاقة بتصميم البلاغة، مثل : قضية الصدق والكذب في الخبر، فتنشظى المسألة إلى صدق القول والاعتقاد، أو

(١) القزويني، الإيضاح، ص ٨٥-٨٦.

(٢) القزويني، الإيضاح، ص ٤٧٦، وقارن بالتلخيص، ص ٣٣٨ .

كذبهما جميعا، أو صدق أحدهما وكذب الآخر.... وتطول نقاشات في هذا الشأن تفرض تساؤلات مثل: ما علاقة هذا بالبلاغة؟ وما جدواه في فحص بلاغة الكلام؟

وفي ظل غلبة المنهج العلمي على البحث البلاغي استكثر من عرض القواعد النحوية، والخلافات بشأنها. وإن كان النحو بوابة البلاغة، وقاعدتها الأساسية، وإن كان التكامل بين العلمين ضروريا جدا لهما معا، فإن ذلك لا يسوغ أن يقوم أي منهما بمهمة الآخر على حساب مهمته الأصلية. لقد أفاض البلاغيون المتأخرون في الخوض في شؤون النحو وشجونته، إلى حد الظن في بعض المواضيع أننا نطالع كتابا نحويا، ونكاد ننسى أننا بين يدي كتاب بلاغي .

وبالإجمال، يمكن أن يقال : إن العلم قد ظهر على الذوق، الذي توارى أو كاد، فقلما نجد له رسيسا أو إشارة، وإن وجدنا فإنما هي استعادة لعبارة زاخرة قالها أحد علماء البلاغة في عهدها الغابر، أو اجترار لبعض إلماعات عبد القاهر .

وفي بعض التعريفات نجد للمنطق الحضور الطاغي: فصاحة المتكلم (ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح)^(١). وقبل أن نفيق من غرابة ارتداد التعريف على المعرّف، يرد كلام القزويني منصبا على تعريف الملكة، فهي (قسم من مقولة الكيف التي هي في هيئة قارة لا تقتضي قسمة ولا نسبة، وهو مختص بذوات الأنفس، راسخ في موضوعه)^(٢). وبدلا من أن نجد تعريفا يوضح حقيقة الفصاحة، نجد القزويني ماضيا في تعريف التعريف^(٣): فقد (قيل ملكة ولم يقل صفة) لكذا وكذا، وقيل (يقتدر بها ولم يقل يعبر بها) لكذا وكذا، (وقيل بلفظ فصيح) لكذا وكذا..... فنجد أنفسنا بذلك مقيدتين إلى فهم التعريف ذاته، وننسى ما وضع أصلا لأجله .

(١) القزويني، التلخيص، ص ٣٢، والإيضاح، ص ٨٥-٨٦ .

(٢) القزويني، الإيضاح، ص ٨٦ .

(٣) المكان نفسه .

عروس الأفراح : (السبكي ١٧٧٣ هـ)

غربت شمس علم البلاغة في شروح التلخيص التي ضمها كتاب واحد اشتمل على مختصر السعد التفتازاني، ومواهب الفتح للمغربي، وعروس الأفراح للسبكي، وعزز بحاشية الدسوقي، وكلها تدور في فلك تلخيص القزويني.

والآراء التي تعرضها هذه الكتب، في المجلد، متقاربة غير متباعدة، وهي تمثل صورة حية للحال التي آلت إليها البلاغة العربية. ولعل في كتاب السبكي عينة صادقة لهذه الشروح، تكشف مناهجها، وطرائق معالجتها للكتاب المشترك الذي يجمعها، وهو التلخيص .

يبدأ السبكي حديثه بالإشارة إلى أهمية كتاب التلخيص، والإشادة به، فينص على (أن تلخيص المفتاح في علم البلاغة وتوابعها بإجماع من وقف عليه...أنفع كتاب في هذا العلم صنف)^(١).

ويشهر موقفه مبكرا من المصنفات البلاغية التي سبقت عهده، فيقول: (لم أطلع للمتأخرين فيه "علم البلاغة" على تصنيف محكم تقرر بتهديبه العين، ولا وقفت لهم فيه على تأليف مجمل أو مفصل، أشاهد صحاح معانيه، فلا أطلب أثرا بعد عين)^(٢).

ويوجد على عهد البلاغة الزاهر الذي يمثلته مفتاح السكاكي شرقا، ومصباح بدر الدين بن مالك غربا، فقد أجديت بعد عهدهما البلاغة كما يرى، (فلم نظفر بعد هؤلاء الأئمة، رحمهم الله تعالى، من أهل تلك البلاد بمن مخض هذا العلم، فألقى للطالب زبدته)^(٣).

ويزري على شروح التلخيص السابقة: (ولقد وصل إلينا من تلك البلاد على

(١) السبكي، أحمد بن علي(١٧٧٣هـ)، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن كتاب شروح التلخيص، جمع فرج الله زكي، مطبعة عيسى البلابي الحلبي، ١٩٣٧، ج ١، ص ٤.

(٢) المصدر نفسه، ٥/١.

(٣) المكان نفسه.

التلخيص شروح.... لا تتشرح لبعضها الصدور الضيقة.... يتناولون المعنى الواحد بالطرق المختلفة.... لا يخالف المتأخر منهم المتقدم إلا بتغيير العبارة....^(١).

ويمضي مطولا ينتقد مناهجهم، وقلة جدوى تأليفهم. ويصدر في حكمه عن ريّ إذ يقول: (وردت حياضهم، فرشفت صفوا، وقذفت ثقلا)^(٢) ، وأنه استعان على كتابه بنحو من (ثلاثمائة تصنيف، وأنه تضمن الخلاصة من مائة تصنيف في هذا العلم، منها ما وقفت عليه، ومنها ما وقفت على كلام من وقف عليه....واختصرت فيه أكثر من خمسين مصنفا في علم البلاغة....)^(٣). ويعدد العشرات من عيون المؤلفات البلاغية منذ فجر عهدها حتى عهده^(٤).

وبذلك، تتفتح أماما آمال تشير إلى أننا أمام فجر جديد للبلاغة العربية يكون فيه القول الفصل، والكلمة الأخيرة . فماذا حصل ؟

نتلقنا إشارة مبكرة إلى الذوق في مقدمة الكتاب، تبين أهميته في التأليف البلاغي، والتذوق البلاغي، ودور البيئة الفاعل في ذلك . إنه ينحاز إلى بلده مصر، وأهلها، فيصف رقتهم الناشئة من رقة بيئتهم، ويشير إلى ارتقاء أذواقهم التي تغنيهم عن كزازة العلم التي غرق فيها غيرهم : (أما أهل بلادنا فهم مستغنون عن ذلك بما طبعهم الله تعالى عليه من الذوق السليم، والفهم المستقيم، والأذهان التي هي أرق من النسيم، وألطف من ماء الحياة في المحيا الوسيم، أكسبهم النيل تلك الحلاوة، وأشار إليهم بأصبعه فظهرت عليهم هذه الطلاوة، فهم يدركون بطباعهم ما أفنت فيه العلماء فضلا عن الأعمار الأعمار، ويرون في مرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجب من الأسرار

(١) المصدر نفسه، ٦/١ .

(٢) السبكي، عروس الأفراح، ٢١/١ .

(٣) المصدر نفسه، ٢٩/١ .

(٤) نفسه، ٣١-٢٩/١ .

خلف الأستار^(١).

هذه الإشارة المبكرة الزاخرة حملت وعدا ممثلاً بأن منهج السبكي سيغلب عليه التيار الذوقي، وأنا سنجد في كتابه معالجات تعيد البلاغة إلى منهج الجرجاني، فيتأخى العلم والذوق، ونصل إلى منهج علمي ذوقي ملتئم، تتجلى فيه القاعدة العلمية، ويستنهض الذوق لتعليقها وتحليلها والتلذذ بها.

لكن الواقع كان غير ذلك، فالسبكي مقيد بالتلخيص الذي يشرحه، لا يملك عنه انفكاكا. وما عابه على سابقه من الشراح حين قال عن بعضهم: (يسري خلف من تقدمه حتى في الكلمة الفذة، ويسير إثره حذو القذة بالقذة)^(٢)، وجد نفسه غير بعيد عما عاب غيره بسببه، فهو، غالبا، تابع أمين لمنهج الكتاب المشروح، ولعله معذور في ذلك، فهو مقتنع بالتلخيص، قانع بدوره في تقيله وشرحه .

ورغم أنه حاول في كثير من المواضع أن يخالف القزويني، وينفرد عنه برأيه الخاص، إلا أن محاولاته تلك اقتصرت على جزئيات لا ترتقي إلى صميم منهج أو أساسيات مضمون، بل هي، في الغالب، أقرب إلى مساجلات تنتسم باستعراض القدرات، تدور حول مقولات منطقية، تستنزف جهد القارئ في تفهمها، ليخرج بعدها خالي الوفاض مما يفيد تفهم البلاغة، وتدوقها .

ولعله في مخالفاته تلك سعى إلى وضع نفسه بنجوة عما عاب فيه غيره، وينفي تلك التهمة عن نفسه، فقد نعى على الشراح أن بعضهم (لا يطمع أن يذوق ما في الاستدراك من اللذة.... قصارى أحدهم أن يعزو أبياتا من الشواهد لقائلها.... وينشر للراغب مفردات الألفاظ من واضح كلام العرب، ويذكر ما لا حرج على مخالفه من اصطلاحات لبعض أهل الأدب، ولا يزيد في شرح عبارة المصنف على الإيضاح زينا

(١) نفسه، ٥/١ .

(٢) نفسه، ٦/١ .

وجد فيه أم شيئا، فلو نطق التلخيص لتلا: ما جئتم به هذه بضاعتنا ردت إلينا....^(١).

واللافت للنظر أن كثيرا ممن انتقد به السبكي غيره ممن سبقه لم يسلم منه، وقارف ذلك واعيا غير ساه، قاصدا مختارا :

يستحضر الذوق ويثني عليه وعلى أهله، وقبل أن يقوم من مقامه، يصرح بوضوح، أنه مزج البلاغة بغيرها: (واعلم أنني مزجت قواعد هذا العلم بقواعد الأصول العربية)^(٢)، بل يضمن كتابه ما لا علاقة للبلاغة به، ولا فائدة تترجى لها منه. وينطوي في ثنايا عبارته ما يشي بأن ما يفعله هذا جدير بالحمد، يقول: (وضمنته شيئا من القواعد المنطقية، والمقاصد*الكلامية، والحكمة الرياضية، أو الطبيعية)^(٣).

ويعلن أنه في إفادته من المؤلفات البلاغية السابقة كان يقع على المفيد، ويترك ما لا جدوى فيه، ومما كان يتركه (شواهد لا حاجة لها لكثرتها)^(٤)، بينما يوجه بعض جهده نحو الإعراب: (وأضفت إليه من إعراب الآيات الواقعة فيه ما هو محرر)^(٥).

وكان في مضمون كتابه وفيما لما صرح به في مقدمته، إلا ما يتعلق بالذوق الذي لا نكاد نجد له أثرا في معالجاته، ومحاكماته، وتتبعه للقرويني، ومخالفته له:

يتعقب القرويني في التعقيد اللفظي والمعنوي، وفي الصدق والكذب في الخبر، وفي بعض أضرب الخبر وأمثله، وفي الحقيقة والمجاز العقلي، وفي سلك الاستعارة

(١) المكان نفسه .

(٢) السبكي، عروس الأفرح، ٢٧/١ .

(٣) المصدر نفسه، ٢٧/١-٢٨ .

(٤) نفسه، ٢٩/١ .

(٥) نفسه، ٢٧/١ .

بالكناية^(١)، وفي الفرق بين : لم يعم كل إنسان، وكل إنسان لم يعم . وفي هذا الموضوع فيض من الجدل المنطقي^(٢).

ولا نملك إلا الشعور بالدهشة، ونحن نلاحظ بعض تعقباته : فهو، مثلا، يخالف التلخيص في تسمية الفرع الثالث من فروع البلاغة "علم البديع"، تلك التسمية التي ألفت في المؤلفات البلاغية منذ بديع بن المعتز وما قبله، يعترض السبكي قائلا: (إلا أن في إطلاق لفظ البديع على غير الله تعالى نظر...^(٣)). ويعترض على قول المصنف "إفادة المخاطب"، فيقول: (وقوله "المخاطب" فيه نظر، وينبغي أن يقول السامع لأنه أعم)^(٤).

أما الاستغراق في الحديث النحوي، فهو يعم أغلب الكتاب، ولا يكاد يغيب فيه عن باب، ولا سيما ما يتعلق بأحوال المسند إليه، أو المسند، أو متعلقات الفعل من حذف وذكر، وتعريف وتكبير، وتقديم وتأخير، وفي القصر والإنشاء، والفصل والوصل، والإيجاز. وتجدر الإشارة إلى أن التداخل بين النحو والبلاغة أمر مألوف وطبيعي، والسبكي يعي ذلك، فيقول: (علم المعاني غالبه من علم النحو)، لكن لكل من النحو والبلاغة وظيفة أساسية ينبغي أن ينهض لها، ويتوفر عليها، والسبكي أيضا يعي ذلك جيدا، ويصرح به، ويحدد غاية النحوي والبلاغي، لكنه عند التطبيق ينزلق كثيرا إلى أحاديث نحوية صرفة، وكأننا بين دفتي كتاب نحوي خالص^(٥).

(١) ينظر : المصدر نفسه : ١٤٩/١، ١٨٣/١، ٢١٣/١، ٢٤٧/١، ٢٦٤/١ على التوالي .

(٢) نفسه، ٤٢٧/١ .

(٣) نفسه، ١٥٠/١، وانظر ٢٨٣/٤ .

(٤) نفسه، ١٩٨-١٩٩ .

(٥) ينظر مثلا: ٢٧٥/١، -٣٢٧/١، ٣٦٠/١، -٣٧٣/١، ٣٧٨/١، -٣٨٤/١، ٤٥٣/١.....

وبذلك، نرى أن الأثر الذوقي متوار، وأن المنهج العلمي هو الطاعي، وليت الأمر اقتصر على ما يتعلق بعلم البلاغة، بل هو طواف في علوم شتى، وكل ذلك على حساب البلاغة : ذوقا وعلمًا .

مطالعة

إن قياس مستوى نجاح أي عمل مرهون بالأهداف التي رسمت له، ومستوى تحقيقها .

لا يوجد اختلاف كبير بين علماء البلاغة في أهمية علم البلاغة، وفي الأهداف التي نهض لأجلها، ولعل أهم هذه الأهداف :

- معرفة كنه الإعجاز القرآني، وأسباب عجز العرب عن محاكاة القرآن.

- تلمس العناصر الأسلوبية الجمالية التي بها يكون الكلام بليغا، فيحكم بتفوقه على غيره، والتي بها يتم اختيار الأجود، والتمثل به، وتنمية الذائقة بمحاكاته .

فعلام اعتمد علماء البلاغة في قياس تحقق هذه الأهداف: على العلم؟ أم الذوق؟ أم عليهما معا؟

أما الإعجاز القرآني فقد كانت لهم فيه، كما مرّ، مذاهب شتى، وكان بينهم في شأنه اختلافات كبرى : فئة رأت للإعجاز أوجها، لا وجها واحدا، وبعض هذه الوجوه لا شأن للبحث البلاغي فيه، كالإعجاز بالصرفة، أو أخبار الماضين، أو الإخبار بالغيوب .

أما الوجه الذي يعني البحث البلاغي مباشرة، فهو الإعجاز البلاغي، أي الإعجاز الناتج عن وجود عناصر بلاغية سمت بالأسلوب القرآني فجعلته عصيا على المماثلة، فظهر عجز من تُحدوا .

هذه العناصر، التي سما بها القرآن عن كلام البشر، والتي بها أيضا تتم

المفاضلة بين كلام البشر أنفسهم: ما هي؟ وكيف يتم تحديدها وقياسها؟ وكيف تدرك ويتم تذوقها؟

بالذوق؟ تلك الملكة الطبيعية التي تولد وتنمو وترتقي في البيئة اللغوية النقية، المشدودة إلى العرف العام المعروف، والاستعمال الموروث المألوف، فما أن يعرض الكلام على السمع الواعي حتى يتصاعد إلى مراتبه، ويسكن في مواضعه اللاتقة به . جرى العرب على هذا في جاهليتهم، وفي فجر الاسلام وضحاها، فقد تشكلت في المجتمع ذائقة عامة تميز مستويات الكلام، وتنطلق على ألسنة النخبة بهيئة تعليقات وأحكام، فانماز بذلك نوابغ الشعراء، ومصاقع الخطباء . وانصاع الفصحاء لارتقاء القرآن، واستكانوا لدى سماعه، فأقروا، أو فروا، أو افتأوتوا وافتروا .

وعندما أطل عهد التأليف البلاغي، ظل الذوق في جزء من التأليف البلاغية معيارا حاضرا في القواعد والأحكام، وحفل بعض هذه المؤلفات بكثير من الإشارات التي تدلل على أهمية الذوق، وضرورة الاستهداء به في فهم الإعجاز، أو تبين بلاغة الكلام، واستجادته، وتفضيله على غيره .

لكنهم في شأن هذا الذوق، وكيفية توظيفه، والاستناد إليه، ما كانوا على أمر جامع : فبعضهم أشار إلى الذوق إشارة عابرة، ومضى في سبيله، وبعضهم أشار إليه، وأشاد به، ونوه إلى أهميته، وجعله ركنا للبلاغة مكينا، لكنه عند التطبيق كان بعيدا كل البعد، فلم يبذُ لكلامه النظري أثر جوهري يذكر . أما الفئة الثالثة، وهي قليلة، ويمثلها الجرجاني خير تمثيل، فقد أدركت تماما أهمية الذوق في الشأن البلاغي : أشارت إلى ذلك نظريا إشارة تلو إشارة، واستحضرت معيارا نقديا في تطبيقات تلي تطبيقات .

لكن هذه الفئة استشعرت الخطر في الركون إلى الذوق، بإطلاق، في الحكم على بلاغة الكلام، فالأذواق تختلف من شخص إلى آخر، ومن عصر إلى عصر، ومن مصر إلى مصر، بل يختلف الذوق لدى الشخص نفسه من مقام إلى مقام،

ومن عمر إلى عمر. فكيف نطمئن إلى اعتبار الذوق معياراً كافياً للحكم في ظل هذه المتغيرات؟ لذلك، توالى تنبيهاتهم على أن الذوق ينبغي أن يكون معللاً ومقيداً، ومحكوماً بأعراف لغوية أو اجتماعية أو مقامية، تجعل المواضعة على أحكامه أمراً قريب المأخذ، سهل التناول، واضح الدليل، يكثر فيه الائتلاف، ويقبل الاختلاف .

يتجلى هذا في جهد الجرجاني، فهو يضع تعريفاً أدبياً حيويًا للباب أو العنصر البلاغي، يصف فيه مزاياه، وأهميته في رفعة شأن الكلام، ويزينه للقارئ، ويحبه به، ثم يبدأ عرض أمثلة من عيون القول البليغ : قرأنا وشعرا وحديثاً نبويًا وأقوال أدباء، يعرض المثال، ويشير إلى موطن الجمال، ويحفز الإحساس، ويعلل، ويحلل، ويبدئ ويعيد، ويستنهض الذائقة، ويمضي ثم يعود، وما يزال على تلك الحال حتى يطمئن إلى أنه قد حقق في نفس القارئ ما أراد، فيمضي، ولا يكاد، إلى عنصر آخر بعدما تظن أنه مقيم، ولا يبرح.

فهو، مثلاً، بعد أن يُعرّف، يعرض الأمثلة للحذف، أو التقديم والتأخير، أو الفصل والوصل^(١)، ويحدد موضع البلاغة، ويحلل ذلك تحليلاً وافياً، ويعلل تعليلاً مقنعاً، يخاطب عقل القارئ، ويثير إحساسه، ويطلب إليه أن يعيد ذكر ما حذف، أو يعيد تأخير ما تقدم، ويتلمس الفرق في الحالين بعقله، بل بحواسه، ليذوق فرق ما بينهما، فيجد ما وجد الجرجاني، ويحس بما أحس .

إنه قائم على قضيته، متفرغ لها، غير مشغول عنها، وغير منشغل بغيرها، همه النفاذ إلى الأسرار البلاغية، واقتياد القارئ إليها، وإقناعه بها، وإمتاعه بتذوقها. ولذلك، نأى عن التعريفات الجامدة، ولم تستهوه التقسيمات والتفريعات التي غرق بها غيره، فكانت وقفاته، غالباً، على أبواب عامة لامّة، أشبه بالقوادم التي يلتبس بها الكثير من الخوافي .

(١) ينظر : الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٤٦، -١٠٦، -٢٢٢ - على التوالي .

إننا في كتابيه بين يدي أمهات الأبواب التي تضم الشأن البلاغي، فتفي بالمراد، وتتحقق بها الأغراض، ويستغنى بها عن غيرها مما أناخ عندها غيره وأفاض. إنها بلاغة تأخى فيها الذوق والعلم، فهما معا معياران ملتئمان في الحكم على الكلام، لا غنى لأحدهما عن الآخر، ولا يكفي أي منهما في غياب الآخر .

استطاع الجرجاني أن يضع للبلاغة قواعد، لكنها قواعد حية واقعية مسنودة بالدليل، معززة بالتحليل والتعليل، قواعد قد تم استقراؤها من شواهد وافرة، مختارة بعناية، وذائقة عالية، وهي معروضة في بيئتها الطبيعية، فتتجلى حارة دافقة بالحيوية. والذوق له الحضور الأكبر: ذوق يحظى باهتمام واع، قد تم الاستهداء به في اختيار الشواهد، وفي استنطاقها، وفي تمثّل جمالها، وأسرار بلاغتها، فكان شاهدا عدلا على العناصر البلاغية، وهاديا دالا في إصدار الأحكام، ومميز الجيد عن غير الجيد من الكلام .

لكن ما أتيح للجرجاني وأمثاله من ملكات أدبية راسخة، وأحاسيس فنية راقية، لم يتح مثله لغيره، فكان الجنوح نحو التقعيد، وقوانين العلم، ومحاولة سلك البلاغة مسلكا علميا حازما، لا مكان فيه للأذواق الذاتية، وإنما الغلبة للأحكام الموضوعية الموضوعية .

الجنوح نحو العلم (تقعيد البلاغة)

لم يطل المقام كثيرا بعد الجرجاني حتى ظهر اتجاه قوي نحو تقعيد البلاغة، وجعلها علما لغويا صرفا . بدأ الأمر على يد الرازي الذي وجه جهده في الإيجاز نحو تلخيص كتابي الجرجاني، فأرسى بذلك الاتجاه العلمي، وفتح الباب لمرحلة التلخيص والشروح والحواشي .

وسرعان ما ظهر السكاكي الذي أضاف البلاغة إلى النحو والصرف، فجعلها جزءا متما لها في كتاب المفتاح، فبدا كأن كتابه هو الكلمة الأخيرة في البلاغة،

فعلية دار جهد القزويني تلخيصا وإيضاحا، وعلى التلخيص دارت البلاغة دوراتها الأخيرة المكرورة إلى عصرنا الحاضر .

وما من شك في أن البلاغة لا يضيرها أن تتسلك في طائفة العلوم، وأن يكون لها قواعدها التي تضبط أحكامها، وتحقق أغراضها . لكن هل ساعد الاتجاه العلمي منذ فجر البحث البلاغي إلى مستقره في الوصول إلى معايير علمية دقيقة، يعرض عليها الكلام، فتصدر أحكاما لا خلاف فيها، ونصل إلى نتائج متفق عليها ؟ لعل هذا كان هو الهدف الذي سعى إليه كل من حاول وضع قواعد للبلاغة تضبط شؤونها، وتوحد أحكامها، فهم جميعا يصدرن عن وعي تام بأهمية البلاغة، وخطورة وظيفتها، فلم يبقَ إلا أن يضعوا لها قواعد عامة دقيقة تتناسب مع أهميتها، وتعملها لأداء وظيفتها .

وهذا الذي يفسر لم كان، كثير منهم، يشيرون تصرّحا أو تلميحا إلى أنهم غير راضين عن نتائج البحث البلاغي الذي سبقهم، وغير مطمئنين إلى نتائجه، فلذلك يأتي المؤلف الجديد للواحد منهم، ليسد الثغور في جهود السابقين، ويزيل أسباب القصور . فهل كان صنيعهم حقا يصب في صالح البلاغة، فينتامي منهجها، ويرتقي في بناء تراكمي جمعي ؟

للإجابة عن هذا السؤال، يمكن الاستدلال ببعض العناصر البلاغية، والأحكام، تلاحقها الدراسة، وتلاحظ مسارها، وتقلب أحوالها من بدايتها إلى آخر مآلها .

تعريف البلاغة :

لعل تعريف البلاغة من أهم العناصر الجديرة بالمتابعة والملاحظة، فعلى التعريف تتوقف النظرات في المناهج البلاغية، وتحديد أهدافها، وقياس نتائجها :

تراكمت جهود البلاغيين في تعريف البلاغة، فالجاحظ، مثلا، نثر العشرات من التعريفات للبلاغة، وبين نعوّتها، ووضح أغراضها، واستغرق ذلك عشرات الصفحات

من كتاب البيان والتبيين، وكان منهجه ذاك قريبا إلى روح عصره من حيث تداخل المسائل المبحوثة، وغلبة الاستطراد^(١).

فجاء العسكري، وعاب على الجاحظ هذا المنهج الذي يعسر فيه العثور على المراد إلا بالجهد والكد، فسعى إلى تبرئة منهجه مما عابه على الجاحظ، فجعل للبلاغة ونعوتها بابا بثلاثة فصول، غير أن فعله ما كان ببعيد عن فعل الجاحظ، فلا نجد لديه تعريفا واحدا محددًا للبلاغة، بل نثارا من تعريفات ونعوت متعددة.

هذا التعريف المحدد نبحت عنه في مسار التأليف البلاغي بعد العسكري، فلا نكاد نجده إلا عند السكاكي الذي وضع للبلاغة وفروعها تعريفات، تتبعها القزويني " ملخص كتابه " بالنقد والتغيير، وكذلك فعل شارحو التلخيص، فتنبعوا تعريفات القزويني، واعتراضاته على السكاكي، وبقي الأمر على هذي الحال حتى نهاية مرحلة شروح التلخيص، فلم يتم الوصول إلى تعريف واحد محدد، وإنما هي اعتراضات واعتراضات على الاعتراضات، يضيع بينها التعريف المنشود. ونفزع إلى العلوي (٧٤٩هـ)، فهو خارج دائرة الشرح، فلا نجد ما نطلب، بل نواجه ثلاثة تعريفات، فلا ندري أيها نأخذ، وأيها ندع؟^(٢)

ومن علائق هذا الأمر أيضا ما نجده من خلاف في مسميات علم البلاغة، وفروعه الرئيسية :

فالعلم الرئيس يطلق عليه البديع، ويطلق عليه البيان، ويطلق عليه البلاغة أو الفصاحة، وفي شأنهما خلاف طال أمده، ولم يكد ينجلي إلا في عهد السكاكي الذي قدم كتابه بالحديث عن البلاغة والفصاحة، والتفريق بينهما .

(١) ينظر : الجاحظ، البيان والتبيين، ٧٥/١ .

(٢) العلوي، يحيى بن حمزة (٧٤٩هـ)، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز، دار الكتب العلمية، ١٩٨٠، ١١/١ - .

والعلماء عبر العصور يعرضون في عناوين كتبهم، ومضامينها هذه المسميات على نحو مترادف متداخل، فالبلاغة بديع، وهي بيان، وهي فصاحة، وهي بيان وبديع، وهي بلاغة وفصاحة . وهم يلمسون ضرر هذا الخلاف، ويصفون أثره: يقول ابن الأثير: (واعلم أنه قد اختلف جماعة من أرباب هذه الصناعة في تسمية أنواع علم البيان، حتى إن احدهم يضع لنوع واحد منه اسمين، اعتقاداً منه أن ذلك النوع نوعان مختلفان، وليس الأمر كذلك، بل هما نوع واحد)^(١). ويذكر أمثلة لذلك .

ولجأ بعضهم إلى الفرار من القيود فجعل البلاغة صناعة لفظية وصناعة معنوية، ونأى بنفسه عن الحدود الحازمة الملزمة^(٢).

وحتى عندما فرق السكاكي البلاغة إلى فروع ثلاثة: المعاني والبيان، وألحق بهما البديع الذي عده محسنات لهما، حتى في هذه المرحلة استمر الخلاف وبقي التداخل بين هذه الفروع قائماً .

يقول القزويني: (وما يحترز به عن الأول، أعني الخطأ، هو علم المعاني .وما يحترز به عن الثاني، أعني التعقيد المعنوي هو علم البيان، وما يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته، هو علم البديع . وكثير من الناس يسمي الجميع علم البيان، وبعضهم يسمي الأول علم المعاني، والثاني والثالث علم البيان، والثلاثة علم البيان)^(٣). فإذا كان الخلاف مستحراً ومستمرًا في شأن تعريف البلاغة، ومميز فروعها الرئيسية، من بداية البحث البلاغي حتى

(١) ابن الأثير، المثل السائر، ٣٣١/٢ .

(٢) ينظر مثلاً: السبكي، عروس الأفراح، ٥٠/١، ٧٦، ٧٧، ٢٧٩/٣ . والسعد التفتازاني(٧٩١هـ)، الشرح المختصر، ٤٩/١، ٧٠ .

(٣) القزويني، الإيضاح، ص ٩٠ . وفي العبارة الأخيرة عدم انسجام مع ما سبقها . ولعل الصحيح: (والثلاثة علم البديع).قارن بالتلخيص، ص ٣٦- .

وأخره، فكيف يتفق هذه والمنهج العلمي القائم على التحديد والوضوح في أصغر أموره
ناهيك عن أعظمها وأخطرها ؟

وفي الشروح خلاقات تستشري في تعريفات البلاغة، وفروعها الرئيسية، ولا نكاد
نجد فيها رأيا جامعا .

ويرتبط بهذا أيضا الخلاف المستشري بينهم في شأن العناصر البلاغية
المتفرعة عن فروع علوم البلاغة، ومصطلحات هذه العناصر، وعددها، وتوزيع على
الفروع الثلاثة : بدأت هذه العناصر بخمسة لدى ابن المعتز، أتبعها، على احتراس،
ثمانية أخرى، وأصبحت خمسة وثلاثين عند العسكري....وما زالت تنتشظى بين
أيديهم وتتشرط حتى وصلت إلى المئات في فرع واحد فقط هو البديع، وهذا أيضا لا
ينسجم مع المنهج العلمي المحدد الواضح .

المنهج العلمي لا يحسم الخلافات في الحكم البلاغي

انتقد النابغة الذبياني حسان بن ثابت في قوله :

لنا الجفانُ العُرُّ يلمعُ في الضحى وأسيافنا يقطرُ من نجدةٍ دما

ولم يكتف النابغة بإطلاق حكم تأثري أعزل، بل سلحه بالتعليل لأن حسان، كما
يرى، استخدم الغر بدل البيض، وقلل جفانه، وجعلها تلمع بالضحى دون الليل، وقلل
سيوفه، وجعلها تقطر بالدماء ولا تسيل منها الدماء.

فجاء من ينتصر لحسان بعد حين، ويوظف في سبيل ذلك الاتجاه العلمي
التعديدي، ذاك هو قدامة بن جعفر . فحسان مصيب كما يرى، فالغر عنده تعني
المشهورات، واللمعان بالضحى أبلغ، فلا يلمع فيه إلا الساطع النور شديد الضياء،
وأن تقطر السيوف بالدماء هو المعتاد المؤلف لا أن تجري، ولذلك فإن (الرد على

حسان من النابغة كان أو من غيره، خطأ بين، وأن حسان مصيب، إذ كانت مطابقة المعنى بالحق في يده، وكان الرد عليه عادلا عن الصواب إلى غيره^(١).

وقد استمر الجدل طويلا بين علماء البلاغة حول حكم النابغة هذا في شعر

حسان :

يقول ابن الأثير : (ووجدت أبا بكر محمد بن يحيى المعروف بالصولي، قد عاب على حسان، رضي الله عنه، قوله.... وقال : إنه جمع الجففات والأسياف جمع قلة وهي في مقام فخر، وهذا مما يحط من المعنى، ويضع منه، وقد ذهب إلى هذا غيره أيضا، وليس بشيء، لأن الغرض إنما هو الجمع، فسواء أكان جمع قلة أم جمع كثرة^(٢) .

ويميضي ابن الأثير إلى أبعد من هذا، فينصر حسان بالقرآن، إذ يستعرض بعض آيات ورد فيها استخدام جمع قلة والمقام استخدام جمع كثرة، كقوله تعالى : " **شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ** " النحل/١٢١، وقوله تعالى : " **اسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ** " النمل/١٤، وقوله تعالى : " **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا** " الزمر/٤٢، ومقامات هذه الآيات تستدعي جموع كثرة .

فإذا كان الحكم منصورا، علميا، في الحالين، فكيف نطمئن إلى النتيجة، وأين الجواب ؟ أحسن حسان أم أساء ؟

(١) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص ٦٠-٦١ .

(٢) ابن الأثير، المثل السائر، ٣٠٩/٢ .

المنهج العلمي لا يحسم أمر فصاحة الألفاظ

يعقد ابن سنان الخفاجي فصلا يتناول فيه الأصوات تتاولا علميا منطقيا، وأعقبه بفصل للحروف، أثار حفيظة ابن الأثير، فانتقده، ورأى الأمر برمته خارج إطار البلاغة، وكان مما قال: (وكتاب سر الفصاحة، وإن نبه فيه على نكت منيرة، فإنه قد أكثر مما قل به مقدار كتابه من ذكر الأصوات والحروف، والكلام عليها، ومن الكلام على اللفظة المفردة، وصفاتها مما لا حاجة إلى أكثره، ومن الكلام في مواضع شذ عنه الصواب فيها...)^(١).

وابن سنان، في ذلك، كان بصدد إرساء قواعد تعرض عليها الألفاظ لتعجم فصاحتها، محاولا وضع نظام لتقييم الكلام، فالفصاحة للألفاظ المفردة، والبلاغة للتركيب "ألفاظا ومعاني"، وهو بذلك وفيّ للهدف الذي وضعه لكتابه، وألزم به نفسه مطلعته: (فإنني لما رأيت الناس مختلفين في ماهية الفصاحة وحقيقتها، أودعت كتابي هذا طرفا من شأنها، وجملة من بيانها)^(٢). ولذلك، فكتابه كما يقول: (مفرد في بابه، غريب في غرضه)^(٣). وسماه سر الفصاحة. وبعد الفصول التمهيديّة واجه غرضه الأساسي تحت عنوان الكلام في الفصاحة^(٤)، وأعلن موقفه قائلا: (إن الفصاحة على ما قدمنا نعت للألفاظ إذا وجدت على شروط عدة، ومتى تكاملت تلك الشروط، فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ، وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف، وبوجود أضعافها تستحق الأطراح والذم)^(٥).

بداية علمية منظمة، يعلن بعدها شروط فصاحة اللفظة مفردة، ومنظومة مع

(١) المصدر نفسه، ٢٤/١.

(٢) ابن سنان، سر الفصاحة، ص ٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥.

(٤) نفسه، ص ٥٥.

(٥) نفسه، ص ٦٠.

غيرها. وشروط فصاحتها مفردة ثمانية يعدها، وأولها: أن تكون متباعدة المخارج، ففي ذلك راحة السمع كما ترتاح العين لتباين الألوان. ويؤكد أن (هذه العلة يقع للمتأمل وغير المتأمل فهمها، ولا يمكن منازع بجدها)^(١).

فهل تم لابن سنان، ولنا، ما أراد وما أردنا، فوصلنا إلى قواعد مرضية يعرض عليها الكلام فتستبان فصاحته، ويحكم له أو عليه؟

تلقف هذه المسألة بلاغي آخر كبير، وهو ابن الأثير، فنسف نظرية ابن سنان من الأساس، وجعلها عرضة للسخرية، إذ قال: (إذا سئلت عن لفظة من الألفاظ، وقيل لك: ما تقول في هذه اللفظة أحسنه هي أم قبيحة؟ فإني لا أراك عند ذلك إلا تقني بحسنها أو قبجها على الفور، ولو كنت لا تقني بذلك حتى تقول للسائل: اصبر إلى إن اعتبر مخارج حروفها، ثم أفتيك بعد ذلك بما فيها من حسن أو قبج، لصح لابن سنان ما ذهب إليه من جعل مخارج الحروف المتباعدة شرطاً في اختيار الألفاظ.... فحسن الألفاظ إذن ليس معلوماً من تباعد المخارج، وإنما علم قبل العلم بتباعدها، وكل هذا راجع إلى حاسة السمع، فإذا استحسنت لفظاً أو استقبحت، وجد ما تستحسنه متباعد المخارج، وما تستقبحه متقارب المخارج، واستحسانها واستقباحتها إنما هو قبل اعتبار المخارج لا بعده)^(٢).

إذا كان الاستحسان أو عدمه حاصلًا قبل العلم، فما فائدة هذه القواعد العلمية المقررة؟ لقد انحصر دور العلم في مجرد تعليل أو تفسير حكم قد نفذ وتم. وليت المنهج العلمي أوصلنا إلى أحكام موحدة في هذا الشأن، فما خلاف ابن سنان، وابن الأثير سوى أنموذج لخلافات استمرت واستشرت حتى آخر عهد التأليف البلاغي في الشروح حول فصاحة الألفاظ، وشروطها. ولعل كل ذلك لا يخدم علم البلاغة، ولا يحقق أهدافها.

(١) نفسه، ص ٦١. وفي العبارة خلل. ولعل الصواب: لا يمكن لمنازع أن يجدها.

(٢) ابن الأثير، المثل السائر، ١/١٥٨-١٥٩.

المنهج العلمي لم يحسم أمر الصراع بين القديم والحديث

أين دور العلم، وأحكامه الموضوعية الواضحة الصريح في الصراع بين قديم الشعر وحديثه؟

تضمنت الكتب النقدية والبلاغية مواقف عدة، انبرى فيها كبار النقاد للحكم على مقطوعات شعرية حديثة يظنونها قديمة، أو يمدحهم الرواة بأنها قديمة، فيسمعونها، ويستعذبونها، ثم يستفيقون على حقيقة توقظهم من وهم خيال مفترض، فيفزعون إلى التبرؤ من أحكامهم التي أطلقوها، بل يطلقون أحكاما نقيضة لها في المجلس الواحد . وقد روى ابن سنان الخفاجي بعض تلك المواقف⁽¹⁾ :

أنشد ابن الأعرابي أرجوزة أبي تمام التي أولها :

وعاذل عذلته في عذله فظنّ أني جاهلٌ من جهله

فاستحسنها، واستكتبها . فلما علم أنها لأبي تمام، قال قولته التي ذهبت حكما نقديا مدويا : خرّق خرّق .

واحتال إسحاق بن إبراهيم الموصلني على الأصمعي، فأنشده :

هل إلى نظرة إليك سبيلُ فيروى الصدى ويشفى الغليل

إن ما قلّ منك يكثرُ عندي وكثيرٌ ممن يحب القليل

فسأل الأصمعي: لمن تتشدني؟ فقال الموصلني: لبعض الأعراب. فقال: هذا والله هو الديباج الخسرواني. ولما فاجأه الموصلني بأنهما لليلتهما، سارع الأصمعي إلى نقض حكمه الأول، فقال: لا جرم، والله إن آثار الصنعة والتكلف باذية عليهما.

إنما يعنينا مما سبق هو ان هذه القضية ظلت تحتل مكانا في الكتب النقدية

(1) ابن سنان، سر الفصاحة، ص ٢٦٢ .

والبلاغية*، ويقبى محل أخذ ورد. فهل حسم المنهج العلمي هذا الأمر، فوضع القواعد التي يحكم بها على الكلام، فلا تختلف النتائج في قيمته قديما كان أم حديثا؟

إنّ العديد من القضايا في الشكل والمضمون بقيت عالقة غير محسومة في البحث البلاغي، واتجهت شمس التأليف البلاغي نحو الغروب، وظلت تلك القضايا تدور دوراتها المكرورة دون أن تجد لها مرسى أخيرا ومستقرا: هل الإعجاز القرآني بلاغي؟ وإن كان بلاغيا، فما العناصر التي جعلته يفوق غيره من بليغ الكلام؟

هل تدخل الأخلاق في الحكم على الأدب؟ هل يجوز أن يحكم على الأدب من نواح فنية محضة لا علاقة للأخلاق بها؟ ما دور الصدق في الحكم البلاغي؟ هل نبحت عن الصدق الفني؟ عن الصدق الواقعي؟ أعذب الشعر أصدق أم أكذب؟ هل يسهل الميز بين أنواع الاستعارات والكنائيات والتشبيهات والمجازات والعناصر البديعية؟ هل بلاغة الكلام في وضوحه؟ في غموضه؟ هل البلاغة في الطبع؟ في الصنعة والتعمل؟ هل يرتبط علم البلاغة بغيره من العلوم؟ هل يفضل أن يتجرد علم البلاغة عن غيره من العلوم؟ هل تتأثر الأحكام البلاغية بأحكام علم غير بلاغي؟.....

هذه الأسئلة، وغيرها كثير ما زالت مشروعة لا نجد لها جوابا قاطعا في التراث البلاغي. لا الذوق كان موحدا في شأنها، يفضي إلى موقف واحد، نعرف الإيجابي فننتبعه، والسلبى فننتجنبه، ولا النهج العلمي قادنا إلى حكم قطعي نعرف الحسن فنأثبه، وغير الحسن فنأى عنه .

* معلوم أن البلاغة التحمت بالنقد قرونا، وما زالت قضية انفصالهما موضع تدبر، ومصدر خلاف بين مؤيد ورافض. وكذلك حال صحة دلالات الألفاظ، وسلامة القواعد النحوية في النص الأدبي، فلا مجال للفصل التام بين الدلالة والنحو، والبلاغة؛ فصحة استخدام الألفاظ، واستقامة النص نحويا، مدخل ضروري للحكم البلاغي .

إذن، ماذا جنينا من كل هذه التعريفات والحدود والتقسيمات والتفريعات والمصطلحات؟ إنها، في الغالب، لا تساهم في خلق الأديب أو رسم الدروب لرواد الأدب كي يبدعوا فيه، وينسجوا على منواله، وينذوقوه، ويحكموا عليه .

وهي، كذلك، متقاصرة عن توحيد الآراء حول الأدب، فلم ترق لتكون معياراً مطرداً، يقاس به الأدب، لا يتخلف حكمه، ولا يختلف الناس بشأنه .

هذه هي الصورة الأخيرة التي آل إليها حال علم البلاغة العربية، جفت منابع الذوق، وهيمن المنهج العلمي العقلي، وتعثرت الخطى في سبيل تحقيق أغراض هذا العلم الذي نهض لأجله أول أمره .

هذا المنهج العلمي العقلي هو المنهج الذي سيطر على مناهجنا التعليمية الحالية المدرسية منها وحتى الجامعية، فالذي ينظر في هذه المناهج، يعاين، بألم، (ما تغيته من تتبع للشاهد والمثال، ومن تعويد للقواعد التي يميز بها طالب العلم أنواع التطبيق والتجنيس، ويجري بها ما هو تصريحي ومكني من صنوف الاستعارة، ويستبين بها مراتب التشبيه، وغير ذلك من آليات يحفظها الطالب عن ظهر قلب، ثم ينساها عن قلب ظهر)^(١).

وتلقت النظر هذه الاستكانة إلى "البلاغة السكاكية"، والطاعة العمياء لمنهجها، فقد (ظلت الدراسة في مدارسنا ومعاهدنا غير قادرة على التخلص من عبء هذه المرحلة، ولم تنهض العقلية الإسلامية إلا الآن بعبء الاستقلال والابتكار)^(٢).

(١) سعد مصلوح، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، آفاق جديدة، لجنة التأليف والتعريب والنشر، جامعة الكويت، ٢٠٠٣، ص ١٤ .

(٢) محمد أبو موسى، خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبه، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٠، ص ٢٥ .

إننا ما زلنا ندرّس العناصر البلاغية مجزأة موزعة على فروع المعاني والبيان والبدیع، كما هي في التلخیص وتوابعه.

نستغرق عظیم الجهد، مثلا، في تناول قضية الصدق والكذب في الخبر، ونغرق في التفريق بين صدق الواقع، وصدق الاعتقاد، وكذبهما، وصدق أحدهما وكذب الآخر، ونتوه مع طلابنا في فروع إثر فروع، وكل ذلك ليس له علاقة مباشرة بصلب البلاغة، أو أغراضها ومراميها .

ونلاحق التشبيه بتفاصيله وجزئياته، والاستعارات بتداخلاتها، وأنواعها، والكناية بأقسامها، والمحسنات اللفظية والمعنوية وفروعها....والأمر في كل ذلك أيضا قائم على تعريفات وحدود، وتقسيمات وفروع، وأمثلة محدودة رحلت في كتب البلاغة طويلا، وما زلنا نردها، ونجتزها جيلا فجيلا : فنمثل لتعقيد الألفاظ ببيت من الشعر بارد ممجوج صنع ونسب إلى الجن . فناءت به كتب البلاغة منذ كانت، ويعد مثلا واضحا لتردد الشواهد وتكررها في المؤلفات البلاغية^(١):

وقبر حربٍ في مكان قفر وليس قُرب قبرٍ حربٍ قبر

ونمثل لتعقيد التركيب ببيت مصنوع آخر، ولد في رحاب الفذلكة، وبرودة العاطفة :

وما مثله في الناس إلا مُملكا أبو أمه حيُّ أبوه يقاربه

ونمثل للاستعارات ببيت فيه حشو مصطنع بهلواني، واستكثار غث :

فأمطرتُ لؤلؤًا من نرجسٍ وسقتُ وردا وعضتُ على العناب بالبرد

(١) ينظر تمثلا لا حصرا: الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص ٩٥، والباقلاني، إعجاز القرآن، ص ٢٦٩، وابن الأثير، المثل السائر، ١/٢٨٩، والقزويني التلخيص، ص ٢٦، والإيضاح، ص ٨١.

وكأننا ما زلنا نردد أصداء آراء نقدية بلاغية منذ العهد الأول، بأن هذا الشاعر فاق ذلك، لأنه أتى بأربعة تشبيهات في بيت واحد . فهل ننمي الذائقة لدى الطلاب بتوجيههم نحو هذا الاحتشاد الشكلي الذي، في الغالب، يكون على حساب جودة المضمون وعمق المعاني .

حتى الأمثلة المشبوبة بالبلاغة، التي تشع تأثيرا وجمالا، تتم معالجتها بأسلوب علمي جاف، وبعبارات مكرورة كزة: يقول تعالى : " رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا " مريم/ ٤ .

أفاض الجرجاني^(١) القول في رفيع بيان هذه الآية، وبراعة تركيبها، وما شحنت به من طاقة تأثيرية هائلة . فجاء بعده من تناولها تناولا سطحيا بدد به جهد الجرجاني، وأغار إبداعه، وها نحن نستعيد ما رددوه، فنقول : شبه الرأس بالوقود، أو بما يشتعل، ثم حذف المشبه به، وأبقى شيئا من لوازمه وهو اشتعل، على سبيل الاستعارة المكنية .

هل، حقا، أرادت الآية هذا التشبيه، ثم حذفته، وأبقت ؟ وهل تخدم أقوالنا المرددة هذه البلاغة، فترتقي بقدرة الطالب على التدوق والحكم والمحاكاة ؟ هكذا نمشي في معالجة معظم العناصر البلاغية في مناهجنا المعاصرة، نتعقب أنواع التشبيه، وتفرعاتها، فهو مفرد وتمثيلي وضمني، وهو مرسل مفصل، ومرسل مجمل، ومؤكد مفصل، ومؤكد مجمل، وبلغ... .

والاستعارات أنواع تتباعد وتتقارب، وتتداخل وتتكامل، والمثال الواحد يمكن أن

(١) تنظر معالجاته لهذا الآية، وإفاضته في استلال أطراف أسلوبها، ومعاودته ذلك مرات عديدة في: دلائل الإعجاز، ص ١٠٠-١٠٢، ٣٩٣، ٤٠٢-٤٠٣، ٤٠٧-٤٠٨، ٤٢٧، ٥٢١... وأسرار البلاغة، تعليق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ودار المدني، جدة، ١٩٩١، ص ٢٧٤. العدد السابع والثلاثون ٥٤٠ يوليو ٢٠١٤

يتناول على طريقتين أو أكثر، لتأخذ الاستعارة في كل مرة نوعا جديدا .
والكناية لفظ أطلق، وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى الأصلي .
وينبغي أن نعبر بهذا التعريف الجاف لنجني فنون البلاغة في أنواع الكناية
الثلاثة.....

ها هنا جناس تام، وهناك جناس غير تام . هذا طباق إيجاب، وذاك طباق
سلب . وهاتان كلمتان فيهما جناس، وفيهما طباق في آن، وهاتان عبارتان فيهما
موازنة ومطابقة معا .

إننا في كل ذلك نطارد الجزئيات، ونستذكر الحدود والمصطلحات، ونكرر أمثلة
تقابلنا في كل المؤلفات، ونظن، بهذا، أننا ننهض للوفاء بمتطلبات البلاغة، ونحقق
أهدافها . ولعلنا، في واقع الحال، نمضي بعيدا بعيدا عن المراد، لأن (هذه الاعتبارات
لا تجدي شيئا في الدراسات البلاغية، لأنها غريبة عن طبيعة البلاغة وغاياتها)^(١).
كان الطلاب، وما يزالون، يشكون من صعوبة النحو العربي، فانضاف إلى ذلك
البلاغة. حتى لو أقررنا، على تخوف، بأن البلاغة ينبغي أن تكون لها أصول علمية،
وهذه التعريفات والتحديدات والتقسيمات جزء من تلك الأصول، حتى لو أقررنا بذلك،
فإن الإفراط في هذا المنهج، لا يمكن أن يكون السبيل الأسلم لتحقيق أهداف البلاغة،
إذ لا يمكن أن تتسلك البلاغة في العلوم المعيارية الحصرية، (لأنها تستند في شطر
من جوانبها على الذوق، ومعنى ذلك أن شطرا من أحكامها يولد في دائرة النفس،
ومعلوم أن علم النفس من أفقر العلوم إلى التحدد)^(٢).

(١) مهدي صالح السامرائي، تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، دار عمار للنشر والتوزيع،
عمان، ٢٠٠٨، ص ١٦٦ .

(٢) مهدي السامرائي، تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، ص ١٦٨. وينظر في مثل هذا: رجاء
عيد، في البلاغة العربية، مكتبة الطليعة، أسيوط، ص ٣، ٨٦، ٢٤٥، ٢٦٢ .

كان ينبغي أن تكون البلاغة أقرب إلى قلوب الطلاب، وأمتع لعقولهم، وأهم الوسائل لتحببيهم بلغتهم، وتزكية ذائقاتهم، وتممية قدراتهم على تمييز جيد الكلام من رديئه، وغثه من سمينه، فنصل بهم إلى استعذاب الكلام البليغ، ونحفزهم على تمثله واحتذائه.

وينبغي أن نرنو إلى أن يكون الدرس البلاغي معبرا للدرس اللغوي بعامته، يخلصه من جفافه، ويخفف من صعوباته المزعومة، لكن الواقع كذب الأمانى، فتحول الدرس البلاغي إلى تفعيد جاف، وحدود حازمة، وقيود صارمة، وتعريفات وتقسيمات لا نكاد نجد لها نهايات .

وماذا بعد ؟

إننا نواجه مشكلة كبيرة في تعليم البلاغة، ويواجه طلابنا مشكلة أكبر في تعلمها .

علماءنا القدامى صدقت فيهم النوايا والعزائم في إقامة هذا البنيان البلاغي، بعد ان اتفقوا على أهميته، ومساسه بالقرآن وقديسيته، لكنهم، منذ روادهم حتى آواخرهم، لم يلتقوا على منهج واحد، ولم يتفقوا في كثير من المسائل والأحكام البلاغية. حتى عندما التقوا على مورد واحد، وهو تلخيص القزويني لمفتاح السكاكي، استمرت الخلافات بينهم، وتنوعت مصادرهم رغم توحدهم في المورد .

وبقي اللاحق منهم يتتبع السابق، ويحصي عليه حروفه، ويستغرق جهده في تعقبه ومخالفته، فنخرج من اشتجار آرائهم دون أن نشفي الغليل في الوصول إلى آراء جامعة، وأحكام نافذة .

وعلماءنا المعاصرون انبرى بعضهم للدفاع عن البلاغة على ما هي عليه، فاقترعت جهودهم على بحوث في تاريخها، وتعداد رجالها ومؤلفاتها، واستعادة مناهجها، ومنطق عصرها. ولعل مثل هذه البحوث (كثيرا ما تقع أسيرة لوهم كبير يعد

جزءاً من الوهم الأعظم في علاقتنا بالتراث عامة، إذ نرى في بعض تجلياته الفارقة الصورة الكاملة لأقصى ما يمكن أن تصل إليه المعرفة العلمية بظواهر اللغة والأدب^(١).

وآخرون منهم أدركوا أزمة البلاغة، وأحسوا عظيم خطر مناهجها على الدرس البلاغي، وتوالت محاولاتهم الوصفية والنقدية والإصلاحية، واستمر مسعاهم نحو التغيير والتيسير. إنهم ينتبعون المناهج البلاغية القديمة، ويميزون بين رجالها، ويقيمونها^(٢). وهم يكادون يجمعون على أن البلاغة انزلت إلى مأزق على يدي

(١) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة علم المعرفة، العدد ١٦٤، آب ١٩٩٢، ص ٨. للتمثل: ينظر في الدفاع عن البلاغة مواضع متفرقة في: أحمد الزيات، دفاع عن البلاغة، مطبعة الرسالة، ١٩٤٥، وفضل حسن عباس، البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية، دار النفائس، عمان، ٢٠١١، وفضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفانها، علم البيان والبدیع، دار النفائس، ط ١٢، ٢٠٠٩، ص ٣٣٧-، وعلي البدري، بحوث المطابقة لمقتضى الحال، المكتبة الحسينية بالقاهرة، ط ٢، ١٩٨٤، ص ٩، ومحمد أبو موسى، خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبه، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٠، ص ١١.

(٢) ترددت في الكتب المعاصرة مسميات ومصطلحات للمناهج البلاغية القديمة مثل: عربي، أعجمي، أدبي، علمي، ذوقي، كلامي، عقلي... وانتشرت آراء المعاصرين في توزيع علماء البلاغة على هذه المناهج. ينظر مثلاً: محمد زغلول سلام، أثر القرآن في تطور النقد العربي، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٢٣٠، ٢٣١، ٣١٦، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٥٠، ٣٥٣، ٣٥٦، ٣٦١، وسعد مصلوح، البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، ص ٢٤، ٢٥، ومازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة العربية، دار الفكر، (د.ت)، ص ١٣، وأحمد مطلوب، البحث البلاغي عند العرب، منشورات الجاحظ، بغداد، ١٩٨٢، ص ٥٥، ورجاء عيد، في البلاغة العربية، ص ٣٠، ومحمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف، البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، دار الجبل، بيروت، ١٩٩٢، ص ١٢، وعلي عشري زايد، البلاغة العربية: تاريخها مصادرها مناهجها، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٢، معظم الكتاب.

السكاكي ومنهجه، ومن تبعه^(١).

وهم يتتبعون مراوحة مناهج البلاغة بين العلم والذوق، ويشيرون إلى المواضع التي ظهر فيها أثر، أو أثارة لكل منهما^(٢).

وبعضهم لا يكتفي بالوصف والنقد، بل يحاول أن يقيم بناء بلاغيا جديدا على أنقاض البناء القديم الذي يراه مشوها أو متهاكيا، أو بحاجة إلى إصلاح جزئي أو جذري^(٣).

لكن الواقع أن المناهج البلاغية التعليمية، ما زالت على حالها، مستوحاة من المنهج العلمي الذي سكه السكاكي شكلا ومضمونا وخطة ومنهجا وأمثلة ذلك كثيرة^(٤).

(١) ينظر مثلا: محمد زغول سلام، ص ٣٣١، وسعد مصلوح، ص ٨، وعلي عشري، ص ٦، ٨٤، ٨٥، ١٢٦، ١٤٠، ٢٠٥، ويدوي طبانة، البيان العربي، المكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨، مواضع كثيرة متفرقة، وشوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥، مواضع كثيرة متفرقة.

(٢) ينظر مثلا: محمد زغول سلام، ص ٣٥٤، وعلي عشري، ص ٧٣، ٧٦، ١٤٠، -١٤٥، ١٨٨، ٢٢٠، ومازن المبارك، ص ٨، ١٣، ٩٥، ومهدي السامرائي، ص ١٢٩، وأحمد مطلوب، مناهج بلاغية، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٥، ص ٢١٠، ٢٩٤، وأحمد بدوي، من بلاغة القرآن، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ط ٥، ص ٧٢، ٢٨٠.

(٣) من ذلك معظم صفحات الكتب في محاولات كل من: أمين الخولي في فن القول، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧، ومناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، دار المعرفة، ١٩٦١، وأحمد الشايب، الأسلوب، ورجاء عيد، في البلاغة العربية، والبلاغة العربية بين التقليد والتجديد، وفلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، ومنير سلطان، بلاغة الكلمة والجملة والجملة، منشأة المعارف بالإسكندرية، (د.ت)، ومحمد أبو موسى، خصائص التراكيب.

(٤) ينظر مثلا: حفطي اشنية ونزيه علاوي، أساسيات في اللغة العربية، قواعد وتطبيق، دار صفاء، عمان، ط ٣، ٢٠٠٤، ص ٣٧-٣٨. ومنهج الكتاب وفق خطة اللغة العربية ١٠١، جامعة البلقاء التطبيقية. ومن المناهج التعليمية المدرسية ينظر: البلاغة العربية والنقد الأدبي، المستويان الأول والثاني، المرحلة الثانوية، محمد سلمان كنانة ورفاقه، الناشر وزارة التربية والتعليم، ط ١، ٢٠٠٦.

وما زال كثير من قضاياها الرئيسية شاخصا لم يخضع لحكم واحد واضح، وما زال كثير من أسئلتها ينتظر جوابا موحدًا مقنعًا . فهل تكون البلاغة، بذلك، قد أدت مهمتها، ونهضت بوظيفتها ؟

هل الإعجاز بالصرفة ؟ بالبلاغة ؟ بوجوه سبعة ؟ بوجوه عشرة ؟ هل هنالك تعريف واضح واحد للبلاغة متفق عليه وغير معقوب ؟ هل البلاغة في اللفظ ؟ في المعنى ؟ فيهما معا ؟ هل فصاحة الألفاظ بتقارب مخارجها ؟ بتباعدها ؟ هل اتفقنا على علوم البلاغة ؟ ومصطلحاتها ؟ ألوان بديعها ؟ عدد أنواع البديع ؟ هل البلاغة بالطبع ؟ بالخبرة التعليمية ؟ هل وفقنا بالتفريق بين البلاغة والفصاحة ؟ هل البلاغة في الصدق ؟ في الكذب ؟ في القديم ؟ في الجديد ؟ في المطبوع ؟ في المصنوع ؟ في الغموض ؟ في الوضوح ؟

ما زالت هذه المسائل وغيرها كثير تنتظر الجواب، إما بتحكيم ذوق واضح المعالم، أو الاحتكام إلى منهج علمي صارم، أو بالأمرين معا .
نضج النحو، واحترق . لكن البلاغة ما زالت علما لم ينضج بعد .

خاتمة (نتائج وتوصيات)

- لعلم البلاغة أهمية اتفق عليها، وله أهداف وضعت لا بد من السعي إلى تحقيقها، والمناهج البلاغية التي اتبعت تأرجحت بين الاعتماد على الذوق، والاحتكام إلى قواعد العلم . وفي سعيها نحو تحقيق تلك الأهداف كثيرا ما اشتجرت واختلفت، وقليل ما تلاقت واتفقت .

- إن مقاصد الشريعة تفرض الاتفاق على منهج بلاغي يعرض على النص القرآني، فتظهر أحكامه، وتتجلى بلاغته، وتتلمس ملامح إعجازه .

- وعلى هذا المنهج البلاغي تعرض النصوص الأدبية أيضا، لاستبانة محاسنها، والحكم عليها، وتذوقها، ومحاكاتها .

- هذا المنهج لا بد أن ينهض على الذوق والعلم معا، فالذوق وحده لا يكفي إذ يفضي إلى أحكام انطباعية تأثيرية منقطعة عن الدليل والتعليل . والعلم وحده لا يكفي أيضا، إذ به تتحول البلاغة، وهي ربيبة الذوق، إلى قواعد علمية جافة تنزعها من بيئتها، وتجفف ماءها ورواءها. لا بد من الذوق، ولا بد من العلم. لكن أي ذوق؟ وأي علم؟

- لا بد من رسم ملامح لهذا الذوق، تخلصه من النوازع الشخصية الصرفة، أو الذائقة الساذجة أو المستهجنة، وتخلصه أيضا من شتات الأذواق باختلاف الأعصار والأمصار. ولا بد من وضع منهجية علمية واضحة، تساوق هذا الذوق، وتفسر أحكامه، وتعلل استحسانه أو استهجاناه .

- في مناهجنا التعليمية يجب أن نستحضر أن لكل عصر أحكامه، وذائقته، ومبدعيه، ومتلقيه . ولا يعقل أن نظل خاضعين لكثير من الأحكام البلاغية التي كانت مناسبة لعصر وذائقة ومبدعين ومتلقين غير عصرنا وذائقتنا ومبدعينا ومتلقينا .

- ويجب أن نستحضر أيضا، ونقر، بأن هذا الحفظ القسري لكثير من التعريفات البلاغية السائدة في مناهجنا، وعناصرها، وأنواعها، لا يخلق مبدعا، ولا ينمي له ذوقا، ولا معولاً، عليه كثيرا، في ميز جيد القول من رديئه، إذ يكفي أن يستوفي المثال العناصر المطلوبة ليحصل على المسمى المقصود، دون أن يكون لذلك أي قيمة في بيان الكلام، أو الكشف عن فصاحته. ولا تأثير له في ذلك إلا المزيد من تنفير الطلاب من هذا الحشد المصطنع لهذه الأنواع، والاستكثار المفرط من أمثلة جزئية شكلية لا تزيد الطالب إلا بعدا عن بلاغتها إن كان فيها بلاغة .

- إن كان استظهار هذه القواعد، ومعرفة الفروق بين هذه العناصر، وحفظ مصطلحاتها، ليس لها جدوى فاعلة في تذوق الأدب أو الحكم عليه، أو في خلق الإبداع الفني، فقد لبث العرب قرونا قبل علم البلاغة، يبدعون، ويتذوقون، وينقدون، فيثنون، وينقدون، دون معرفة هذه العناصر والمصطلحات، إن كان الأمر كذلك، فما أحرانا أن نوفر جهدنا بدلا من استنزافه تعليما وتعلما في مثل هذه المطالب، ونوجهه نحو تنمية بيئة أدبية مصغرة في المواقف التعليمية تتحدى البيئة الطبيعية التي كانت حاضنة الإبداع والنقد . لا نستغرق في ملاحقة هذه العناصر، بل نختار عيون الأمثلة منها، نقرأها، ونشرحها، ونحلها، ثم نلمح إلى مواطن الجمال فيها، ونطلب إلى الطالب أن يتلمسها، ونحفزه على أن يتذوقها، ويحاول أن يحاكيها. ونعرض له أمثلة أخرى خلقت من مواطن الجمال تلك، ونترك له فرصة المقاربة والموازنة ليلمس الفرق بين الحاليين . ونشير إلى الصور الفنية إشارة عامة تتبع الملامح الرئيسية للتشبيهات والاستعارات والكنائيات، ومواقع التحسين والتزيين، دون أن نغرق في تفصيلاتها، أو نجهد في تبين الفروق الخفية فيما بينها . فإذا كان علماء البلاغة الأفاضل قد أشكل عليهم الكثير من هذه المسائل، فخلطوا بين تشبيه واستعارة وكناية وحقيقة ومجاز عقلي..... ووجهتهم نزعاتهم الفكرية والمذهبية فاحتشدوا كل يحاول أن يقود الكلام نحو ما يريد، إن كان الأمر كذلك، فهل نتوقع من

شداة العلم الإحاطة التامة بهذه العناصر، والفروق بينها، مع قلة جدوى ذلك في تحقيق أهداف البلاغة؟

- وفي هذا المقام لا بد من تجنب الشواهد المكرورة، أو المثيرة للشبه والإشكال، وينبغي اختيار أنصع الأمثلة، لا سيما من القرآن الكريم، لتكون الأنموذج المحتذى، تعالج بعيدا عن الطريقة الاستقرائية التي تضع القاعدة، وتلحقها بالشواهد، بل العكس تعرض الشواهد، وتعالج، وتتذوق، ثم تستنتج القاعدة دون أن تكون هي الهدف الأهم. وليكن حرص تام على أن يتولى تدريس البلاغة من له ذوق أدبي عال، يفهم مواطن الجمال، ويؤمن بما يقول، لينقل إحساسه وقناعاته إلى طلبته.